21 متر مربع

رواية

شَـــامَة

رضوى جاويش

الكتـــــــاب: ٢١ متر مربع: شامة
اسم المؤلفـــة: رضوى جاويش
تصميم الغلاف: ريهام البلتاجي
التدقيق اللغوي: عيد إبراهيم عبدالله
الطبعــــــــة: أبريل 2021
رقم الإيـــداع: 00000 / 2021
الترقيـم الدولـي: 9 - 049 - 779 - 977 - 978
الموقــــــــع: www.ibda3eg.com

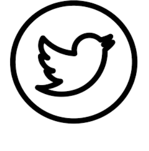
المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله
dreidibrahim@gmail.com

للتواصل بخصوص النشر:
info@ibda3eg.com
publishing@ibda3eg.com
للتواصل بخصوص المبيعات
00201004022774

العنوان: 10 ش هدى شعـــــراوي، وســــط البـــــلد، القاهـــــرة
هاتف: 0223909119 - موبايل: 01001631173
البريد الإلكتروني: info@ibda3eg.com


dar__ibda3


ibda3-tp


dar__ibda3

21 متر مربع

رواية

شَامَة

رضوى جاويش



الإهــداء

إلى الصعيد .. مسقط الرأس، وأرض الأهل والأحباب،

ومكمن الذكريات، وحكايا الزمن الغابر ..

أهديك يا أرض الحلم الوردي والواقع المرير..

أولى كتاباتي ..

رضوى جاويش

جريمة

أخذت الذئاب تعوي بشراسة تقشعر لها أبدان أشجع الرجال وخاصة مع انتشار صدى العواء في كل جنبات ذاك النجع الهاجع في تلك الليلة قارصة البرودة..

ازداد العواء حدة جعلت قمر هذه الليلة يختبئ خلف الغيوم التي انتشرت بعرض السماء القاتمة ليتحول ظلام الليل إلى عتمة أكثر رهبة من ظلمة قبر..

كانت أصداء العواء لا تنقطع وكأنما هي إشارة ما تنبئ عن حدوث أمر جلل ما دفع ذاك الرجل المتلحف بعباءته الصوف ومرافقه من الإسراع رغم مشاعل النيران التي يحملانها في اتجاه غيط القصب القريب من سفح الجبل الغربي المنتصب في شموخ كشاهدٍ أخرس على كل ما يدور حوله منذ دهور خلت.. تبصر صخوره كل شاردة وواردة ولو نطقت لأخبرت بالأعاجيب..

توقف كلا الرجلين عند حافة الغيط هاتفا أحدهما بالأخر متأففا:

- انت متوكد انك نسيته هنا يا مخَبِّل؟..

هز الآخر رأسه مؤكدا ليستطرد الأول هاتفا في غيظ:

- واللّه اللي يلايمني على راسك دلوجت لأحشها من فوج كتافك وارتاح..

دفع الرجل بالمشعل الذي يحمل ليد مرافقه مستكملا بنبرة ناقمة:

- صغير ياك تهمّل مفاتيح الخزنة والدار بجلب الزرعة..

هتف المرافق مؤكدا:

- مهياش بجلب الزرعة.. جلت لك عند السجرة اللي ع أول الغيط..

اهااا.. أني رايح اشوفهم عشان نخلصوا م التنبيط ده..

ما أن تحرك المرافق بمشعله مبتعدا حتى سمع صرخات صاحبه بين أعواد القصب..انتفض قلبه بين ضلوعه عائدا إليه واجف الفؤاد يرتعد متسائلا بنبرة مهتزة:

- إيه فيه يا..؟!..

لم يمهله صاحبه ليكمل سؤاله بل اندفع إليه هاتفا في اضطراب:

- ياللاه بينا ع النجطة طوالي.. هِم..

هتف صاحبه بنبرة تماثله اضطرابا:

- إيه فيه؟ ما تنطج سيبت ركبي..

أكد الرجل وهو يحمل مشعله مهرولا:

- جتيل يا فجري.. جتيل فالزرع يا وش البوم..

هتف صاحبه في صدمة:

- جتيل!؟.. مين؟!..

حث الرجل خطاه مؤكدا:

- معرفش!؟.. ملوش چتة.. هي يد بس اللي شوفتها بين الجصب.. ديب من الديابة كنه نبش ولجيها..

أسرع صاحبه ليلحق بخطوات الرجل الواسعة هاتفا في قلق:

- ربك يستر..باينها هتغفلج.. والحَكومة هتجلب الدنيا..

هتف الرجل في نبرة متوترة يلهث هرولة:

- ربك يچيبها چمايل ويعدي الليلة دي على خير..

هتف صاحبه متضرعا:

- يا رب..

*****

وقفت تمسك بالقضبان الحديدية للنافذة المطلة على حوش واسع فارغ تماما من أي مخلوق وكأنما الدنيا قد خلت بالفعل من قاطنيها.. كان يجلس بأحد الأركان حارس متوسط العمر أسمر البشرة يبدو على ملامحه وكذا ملابسه أن موطنه الأصلي إحدى قرى الصعيد.. أشعل ذاك الحارس نارا بركوة كانت موضوعة أمامه للتدفئة ولصنع الشاي الذي يعينه على تحمل البرد القارص في منتصف ديسمبر.. تطلعت من جديد لتلك النار التي أشعلها لصنع كوب من مشروبه الذي لا يسلاه وغام وجهها وأربدّ.. كانت ألسنة النار تستعر أمامها لكن خيالها صورها أكثر اشتعالا وأحرَّ لهبا فبدأت في هز القضبان الحديدية للنافذة في قوة وقد علا صوت صرخاتها لتشق عنان السماء ويرهب صداها المتتابع المخيف كل من وصلت أسماعه في مثل تلك الساعة.. حتى أن الحارس انتفض في ذعر مبتعدا عن موضع جلوسه لا يعلم أن نيرانه كانت هي السبب الرئيسي في هياجها غير المبرر من

وجهة نظر الجميع..
دوى صدى صوت مزلاج العنبر في قوة مؤكدا انفراج بابه ليطل منه طبيب واثنين من الممرضين ضخام الجثة.. أشار الطبيب ليتحركا نحوها وهي ما تزال على حالها لم تبرح موضعها متشبثة بالقضبان تهزها في عنف عجيب لا يمكن أن يصدر إلا عن روح موجوعة حد اللامعقول..
جذبها الممرضان بكل ما ملكا من قوة حتى استطاعا إبعادها عن النافذة لكن عيونها كانت معلقة بلهب النيران بركوة الحارس تعلق عجيب انقطع ما أن أصبحت في طريقها لخارج العنبر بصحبة الممرضين والطبيب حتى حجرة العلاج بالصدمات الكهربائية..
كانت تقاوم قبض الممرضين على ساعديها فقد كانت تعلم أنهما يقتاداها لمكان مجهول لكنها تستشعر أنه سيكون فيه ألم آخر لا قِبلِ لها على تحمله..
ظلت تقاوم وتقاوم.. حتى وجدت نفسها ممددة على فراش أبيض.. تمنعت كثيرا عندما وضعوا شيئا ما على جانبي جبهتها لكن جسدها بعد لحظة أخذ ينتفض مرة بعد مرة حتى بدأت قواها تخور مستسلمة تماما لكل ما يحدث..
ما أن أيقن الطبيب أنها سكنت حتى أمر مرافقيه بحملها حتى فراشها بالعنبر من جديد.. أُلقيَ بها على الفراش في عشوائية حتى أنهما نسيا تلك النافذة منفرجة ليصفر الريح داخل جدران العنبر

بأنشودة جنائزية جعلتها تتطلع للسقف الشديد الجفاف والذي فقد بعض طلائه متأثرا برطوبة المكان هامسة بنبرة متحشرجة وبأحرف متمهلة:

- هو صحيح..الهوى غلاب؟.. معرفش انا..

وظلت تردد كلمات أغنيتها على أنغام الريح التي كانت تُعربد داخل ذاك العنبر الموحش والذي على الرغم من وجود قاطنيه من مرضى؛ لكنها ما استشعرت يوما وجودهن.. فقد كانت بعالم آخر.. عالم من صنع خيالاتها التي لا يعرف أحدهم هل هي حقيقة أم مجرد أوهام!؟..

*****

انقلب الفجر في تلك الليلة إلى نهار ساطع ما أن علمت الشرطة بخبر ذاك القتيل الذي لم يِعثروا من جثته الا على كف يد وحيدة يُعتقد أنها كانت مدفونة وأخرجتها الذئاب نبشا..

بدأ ضابط المباحث في جمع المعلومات من هنا وهناك تاركا خبراء المعمل الجنائي يعملون في نطاق ذاك الغيط الذي عُثر فيه على الكف..

هتف الضابط المساعد مؤكدا للضابط المحقق في لهجة رسمية موضحا:

- واضح أن الجثمان مش مدفون كله في مكان واحد..

أكد الضابط في هدوء:

- عندك حق..اللي بلغوا ملقيوش إلا كف الأيد دي.. وخلاص كده..

هتف خبير المعمل الجنائي متوجسا:

- يا فندم من فحص الكف مبدأيا اقدر اقول لحضرتك أن القتيل ده مقعدش مدفون وظهر الجثمان أو حتى جزء منه بسبب الديابة زي ما احنا فاكرين..

زمَّ المحقق ما بين حاجبيه هاتفا في تعجب:

- اومال ايه!؟..

هز خبير المعمل الجنائي رأسه هاتفا:

- هيبان يا فندم.. الجريمة شكلها طازة.. ربنا يعينا..

أكد الضابط بإيماءةٍ من رأسه:

- يا رب..

*****

ارتجت ساحة المحكمة ونهض الحاضرون عندما دخل القضاة ليجلسوا مواضعهم على منصة القضاء وبدأت الجلسة..

لم تعِ هي كلمة مما نطق به ذاك الرجل المتشح بالسواد هناك وهي تراه من خلف قضبان محبسها الحديدية.. كانت الرؤية في الأساس ضبابية؛ فقد كانت تستشعر دوارًا لا تعرف له سببًا، وما زاد الأمر سوءاً تلك الكاميرات التي بدأ نورها يسطع بوجهها وكذا وجوه رفيقاتها داخل القفص..

لم تكن تكترث لكل هذا.. كل ما كان يعنيها أنها تشعر بالإرهاق الشديد، وأن لا رغبة لديها في الاستمرار بذاك العبث الدائر..

تطلعت حولها في تيه وتحركت في اتجاه ذاك المقعد بأحد أركان

القفص الحديدي وجلست في هدوء متجاهلة كل ما كانت تضج به القاعة الباردة وكأن الأمر لا يعنيها على الإطلاق..

أسندت رأسها على الجدار الملاصق لمقعدها تتلمس من تلك الرطوبة التي يبثها بعض من برودة قد تريح ذاك الرأس الذي يغلي كمرجل على نيران من تشوشٍ وتيهٍ لا تعلم متى اكتنفا عقلها الواعي..

أغمضت عينيها في رغبة حقيقة لتناسي كل ما يعج به القفص من صرخات كانت معلنة عن فرحة لبراءة أو اعتراضا على حكم ظالم..

لكن لم يهنأ بها الحال فبعد دقائق انفرج باب القفص ليدخل العساكر لجذبها لخارجه مصطحبينها لمكان لا تدري كنهه أو ربما تدري ولا تذكر..

تبعتهم في إستسلام تام ومقاومة عاجزة وبلا رغبة في إبداء أي إعتراض وهم يدفعون بها مرة أخرى لصندوق خلفي لسيارة ارتجت بها ما أن خرجت للطريق لتعيد لها شعور الغثيان والدوار من جديد...

*****

بلاغ آخر قُدم للشرطة بالعثور على عظام موجودة بأحد المناطق المتاخمة للجبل.. البحث الأول لم يسفر عن أي دلائل تقود للإمساك بأول الخليط للوصول للفاعل..

قامت الدنيا كالعادة وظهرت الشرطة وانتشرت بالمكان.. وأُطلق العنان لفرقة من الكلاب البوليسية المدربة للصعود للجبل مع قوة شرطية للحصول على أدلة أو الوصول حتى لبداية الطريق لحل ذاك

اللغز.. توقف البحث بعد الحصول على مزيد من بقايا عظمية لجثة ما يبدو أن الذئاب قد أجهزت عليها ولم يبق منها إلا رفات متناثرة هنا وهناك..

تطلع ضابط المباحث حوله في ذاك المكان المقفر وتوجه للعمدة متسائلا وهو يشير من عليائه:

- عشة مين دي يا عمدة!؟..

أكد العمدة في لامبالاة:

- دي عشة بتين غلابة وأمهم العاچزة يا بيه.. دول ولايا مش لاجيين العيش الحاف..

تجاهل الضابط كلمات العمدة وبدأ في الهبوط ببطء مدروس من تلك الربوة العالية التي كان يتسيدها تجاه مدخل العشة التي وصلها لتوه والجمع الذي كان يرافقه بأعقابه..

هتف العمدة وهو يطرق الباب الخشبي المتهالك للعشة:

- يا اهل الله.. ياللى هنا..

فتحت شامة في اضطراب هاتفة:

- مين!؟..

أعلن الضابط عن هويته لتهتف به في صدمة:

- إيه يا بيه!؟.. والنعمة ما عملنا حاچة.. احنا ولايا وغلابة..

وتطلعت للعمدة هاتفة في لهفة كالغريق الذي تعلق بقشة علها تنجيه:

- حتى اسأل حضرة العمدة.. احنا لينا فحاچة يا حاچ سعودي!؟..

أكد العمدة في محاولة لبث الطمأنينة بنفسها:

- متخافيش يا بت.. حضرة الظابط هيسألك سؤالين كده..چاوبيه باللي تعرفيه..

أكدت شامة هاتفة:

- أني معرفش حاچة..

هتف الضابط في نفاد صبر:

- هو أنا لسه سألتك عن حاجة من أساسه!؟..

هتف العمدة بلهجة حازمة محاولا فرض سلطته في حضرة ممثل الحكومة:

- اسمعي من سكات يا بت.. چاوبي بلا كتر حديت..

صمتت شامة ليهتف الضابط مستفسرا:

- انتِ عشتك قرب الجبل.. مسمعتيش حاجة كده ولا كده من كام يوم!؟.. يعني.. صوت ضرب نار أو صريخ.. أي صوت مش طبيعي!؟..

أكدت شامة بعد نظرة بلهاء:

- لاه يا بيه.. محصلش.. وبعدين هو الچبل بيخلا.. ياما سمعنا حاچات تشيب.. فاتعودنا ومبجيش فارج معانا..

تنهد الضابط في حسرة هاتفا:

- هو انتِ مين عايش معاكِ هنا!؟..

أكدت شامة:

- أمي العاچزة.. وأختي يمامة بس مهياش هنا.. أصلك لازما واحدة

فينا تجعد مع أمنا والثانية تخرج لأكل العيش.. كل واحدة يوم يا باشا واهي بتفرج..

هز الضابط رأسه آمرا:

- طب ادخلي وأقفلي بابك عليكِ..

دخلت في هدوء مطيعة أمره متنهدة في راحة أن الأمر مضى على خير ما يرام.

*****

وقف ضابط المباحث والطبيب المسؤول عن مراقبة حالتها ليسأل الأول في فضول:

- ها يا دكتور.. إيه الأخبار!؟.. أكيد بتمثل علينا.. مش كده!؟.. انا عارف الحركات دي كويس.. أصلها مش أول مجرم يحاول يدعي الجنون عشان يهرب من العقوبة..

أكد الطبيب في هدوء:

- الموضوع مش بالسهولة دي يا فندم.. دي أمانة.. مقدرش اقول كلمة واحدة عن كونها مريضة من عدمه إلا لما اخد الوقت الكافي.. وبالذات المذنبة دي..

أبعد الضابط ناظريه عن محيا شامة متطلعا للطبيب في تساؤل:

- اشمعنى المذنبة دي بالذات!؟..

أكد الطبيب وقد حادت نظراته عن محدثه لتصبح منصبة على شامة هاتفا في نبرة توحي بالتردد:

- عشان المذنبة دي ساعات تبقى متأكد قوي إنها بتدعي المرض وفلحظة تانية تأكد لك إنك كنت غلطان وإنها بتعاني من حالة فصام عجيبة.. كأنها شخص تاني تماما..

هتف الضابط مستوضحا:

- أكيد حضرتك عارف أنه كان لها اخت توأم.. قصدك أنها بتتقمص شخصيتها!؟..

هتف الطبيب:

- طبعا.. إحتمال كبير.. وخاصة إن سبب الجريمة الأساسي هو الإنتقام لمقتل أختها على إيد القتيل..

هتف الضابط في تسليم للطبيب وهو يهز رأسه متفهما :

- عندك حق يا دكتور.. الموضوع عايز تأكد أكبر قبل كتابة التقرير..

أكد الطبيب على كلامه بإيماءة من رأسه ليتطلع كلاهما في تلك اللحظة لشامة وهي جالسة في استكانة على سريرها تضم ركبتيها لصدرها محتضنة ساقيها بذراعيها تهتز جيئة وذهابا تهمهم في هدوء بكلمات أغنية قديمة كانت أمها تشدو بها في صوت عذب باكية وهي تهدهدها وأختها:

فصلولي العشج توب.. اني جلت مش توبي..

خلًي فارجني وراح.. راح وهمللي ذنوبي..

ما نبني إلا الوجع.. اوعاكِ ما توبي..

اخذت تكرر عديدها بهمهمات عجيبة واهتزازات جسد منتظمة

وعيون شاخصة للمدى البعيد لا يعلم إلا الله أين جال خاطرها..

*****

نزلت الذئاب جوعى في تلك الليلة الباردة حتى أنها استشعرت حركاتهم حول عشتها وعوت فجأة عواء جعلها تنتفض رافعة رأسها عن موضع رقادها بالقرب من أمها متطلعة نحوها في ذعر.. لقد كانت هنا.. تكاد تقسم أن أختها الراحلة كانت هاهنا تتمدد قربها.. وجهها بالغ السواد من شدة احتراقه تهمس جوار أذنها أن انهضي وغطيني.. عن أي غطاء تسأل وهي بمرقدها تحت الثرى بذاك الغيط المهجور؟!..

نهضت تسير في اضطراب نحو القُلَّة الفخارية لتشرب لعل ذلك يهدئ من رجيف قلبها المرتجف.. تردد نداء أختها بمسامعها من جديد وكأنه يأتي من داخلها هي.. تستشعر تقتراب عقلها من حافة الجنون الرسمي.. وضعت كفيها على أذنيها ضاغطة في شدة لعلها تصم مسامعها عن نداء الذعر..

ساد الصمت لبرهة ما دفعها لترفع كفيها مبعدة إياهما إلا أنها انتفضت في فزع عندما سمعت أحدهم يصرخ بالخارج:

- جتيل.. جتيل..

سمرتها الصدمة موضعها.. عن أي قتيل يتحدث هذا المذعور بالخارج؟!.. أيكون..؟!..

صمت عقلها وتعثر فجأة باحتماله الأقرب للصواب، وعاود صوت

أختها الهامس الأشبه بفحيح حية يتسرب من جديد لمسامعها معاتبا:

- مش جلت لك غطيني يا بت أبوي.. خليتي الغريب يهتك ستري..

اندفعت خارج العشة في اتجاه كانت تحفظ عدد الخطى إليه لكثر ما زارته مدعية أنها تلحق بركب القوم الذين جاءوا ملبين النداء.. وقفت عند حدود الغيط حيث يتجمهر البعض متطلعا نحو ذاك الجثمان المسجى بالبعد لا تظهر معالمه التي شوهها الحرق مع انتزاع الذئاب لبعض أجزائها في شراسة..

لم تع ما تفعل.. فقط وجدت نفسها تسير في اتجاه الجثمان رغم تحذيرات البعض وهتافات البعض الآخر المعترضة لتخلع عنها شالها الصوفي الذابل نسيجه والذي اشتكت خيوطه كثرة التفكك والتشرذم.. ملقية إياه تستر جثمان أختها عن أعين الخلق المتفحصة لتعود لموضعها حيث يتحلق البشر الذين زاد عددهم راحلة عنهم لعشتها لا تريد البقاء ومشاهدة المزيد من ذاك المشهد الذي يضاعف سقم فؤادها أكثر.. يكفيها أنها نفذت وصية أختها بطلب الستر والتي أيقظتها من سباتها لتنفيذها.. وها قد فعلت..

*****

طرقات على باب حجرة الطبيب الذي يشرف على حالتها والمقرر له كتابة التقرير الطبي عن حالتها النفسية.. دخلت الممرضة تسحب شامة من كفها خلفها تساعدها على الجلوس بأحد المقاعد بالغرفة ليشير لها الطبيب بالانصراف تاركة شامة مفردها معه..

نهض من موضعه خلف مكتبه يسير نحوها وهي لم تُعره اهتماما أو تلق عليه نظرة.. كانت شاردة بعالم آخر هو خارج إطاره تماما..

جلس قبالتها هاتفا باسمها:

- شامة.. مش ده اسمك برضو؟!.. ولا اسمك يمامة؟!.. ولا ليك اسم تاني انا معرفوش؟!..

لم تجبه بل أدارت وجهها نحوه وهمست باسم اختها في صوت متحشرج:

- يمامة..

وابتسمت ابتسامة بلهاء هامسة مكررة الإسم من جديد:

- يمامة..

ثم بدأت في الشدو بأحرف متقطعة:

- يمامة بيضا.. ومنين اجيبها؟!.. طارت يا نينة.. عند صاحبها.. طارت يا نينة عند صاحبها..

تطلع لها الطبيب بعين فاحصة هامسا:

- كنت بتحبيها يا شامة؟!..

تطلعت إليه ولم تجبه بل ظلت على شدوها دون أن تقطعه ليعيد تساؤله لكن بشكل مختلف:

- كنتِ بتحبيها عشان كده قتلتي عسران بن عمدة بلدكم؟!..بيقولوا إنه قتلها.. صح الكلام ده؟!..

استمرت في غنائها ولم تعقب بحرف واحد على أي سؤال من أسئلته

ما دفعه ليهتف بها في محاولة منه لجذب انتباهها:
- يا شامة انا بحاول اساعدك.. ساعديني.. الجريمة دي عقوبتها الإعدام.. عارفة يعني إيه إعدام؟!..
ما زالت على لامبالاتها بكل ما ينطق.. تكرر مقطع أنشودتها في تتابع محموم ويبدو أن لا نية لها في التعاطي معه بأي شكل من الأشكال ومساعدته في كتابة التقرير الذي سيكون فيه إما هلاكها أو نجاتها من التفاف حبل المشنقة حول رقبتها..
نهض من موضعه ضاغطا زرًّا ما لينفرج الباب وتظهر الممرضة من جديد.. أشار لها لتأخذ شامة لتعيدها للعنبر.. سارت جوارها في هوادة حتى أجلستها على طرف فراشها الذي ظلت متسمرة عليه تتطلع لمجهول غائب عن أعين الجميع تعيد تكرار أنشودتها هامسة:
- البلبل خدها.. وطار وياها.. قصده يا نينة يعرف لغاها.. قصده يا نينة.. يعرف لغاها..
تمددت أخيرًا وسرح عقلها بسقف العنبر الباهت حتى غلبها النعاس.. فراحت في سُباتٍ عميق..
*****

ذنب

كان الكاردون الذي فرضته الشرطة على المنطقة يشمل الجزء المتطرف القابعة به عشتهن.. لا تعلم ما الذي حدث بالضبط وما كان يعنيها.. كان كل ما يشغل بالها اللحظة هو الخروج من نطاق هذا الحصار حتى تستطيع اللحاق بالأنفار للعمل في أحد الغيطان لتحصيل قوت يومها..

استوقفها أحد الخفراء صارخا بها:

- رايحة على فين يا بت!؟..

هتفت به:

- رايحة اشوف أكل عيشي.. ولاه نموتوا من الجوع أني وأمي عشان ترتاح يا شيخ الغفر!؟..

هتف بها في غضب:

- بكفياكِ مناهدة وارجعي عشتك واجفلي عليكِ بابك..الدنيا مجلوبة.. ليخدوكِ فالرجلين يا حزينة..

هتفت في تعجب:

- ليه كده كف اللّه الشر!؟.. إيه في!؟..

لم يقاوم شيخ الخفراء رغبته في إفشاء سر ليس بسر من الأساس

وهتف ساردا:

- لجيوا جتت بت نبشت عليها الديابة.. بس إيه.. اللهم احفظنا.. كنها محروجة..

ضربت على صدرها في صدمة هاتفة في ذعر وكأنها لا تدري:

- يا ساتر يا رب.. هو إيه اللي بيحصل ده يا شيخ الغفر؟!.. الناس چرى لها إيه بس؟!..

أكد شيخ الخفراء في نبرة أحد الفلاسفة:

- اه والله يا بتي.. بجيت ديابة الچبل ارحم من البني ادمين على بعض..

وتنهد أمرا إياها:

- روحي يا بتي.. ارچعي..

أومأت بطاعة وما أن استدارت تهم بالعودة إلا واستوقفها أمرا:

- بجولك..

تطلعت إليه مستفسرة لتجده يضع بكفها بضعة قروش هامسا:

- خدي دول.. چيبي حاچة تاكلوها.. العوزة واعرة.. وانتوا ولايا..

تطلعت للقروش بكف يدها ورفعت ناظريها إليه في امتنان:

- ربنا يخليك يا شيخ الغفر..

ضمت كفها على القروش التي للمرة الأولى تنالها دون مشقة عائدة لأمها..

*****

تسللت إلى تلك الخيمة المتطرفة بأحد أركان مضارب الغجر المنصوبة بأطراف النجع.. كانت ملثمة تماما يغطي وجهها شالها الأسود وبردتها السوداء تخفي معالم جسدها تماما حتى أنها كانت أشبه بغيمة سوداء تسير على قدمين.. اندفعت إلى تلك الخيمة بلا استئذان وكأنها على ميعاد مع صاحبتها التي كانت تجلس بين أدواتها العجيبة يخيم على جو المكان رهبة خلعت قلبها من موضعه وخاصة عندما نظرت إليها تلك العجوز ذات الشعر الأشيب الذي كان يطل في صفاقة خارج حدود منديلها المعصوب حول جبينها معلنا عن سنها الحقيقي رغمًا عن تلك المساحيق التي كانت تلطخ بها وجهها بعيون جاحظة مخيفة المنظر..

هتفت المرأة الغجرية سماهر بصوت أجش أشبه بأصوات الرجال:

- چبتي اللي جلت لك عليه!؟

هزت شامة رأسها في إيجاب عدة مرات دون أن تفه بحرف واحد.. أخرجت طلب العجوز من بين طيات ثيابها دون أن تكشف عن هويتها.. فقد كانت غير راغبة في الإفصاح عنها لأي من كان.. خاصة هذه المرأة الخبيثة الطَّوية..

مدت العجوز كفها وتناولت ذاك الشال الأبيض من كف شامة المرتجفة وتطلعت إليه بعين خبيرة وقربته لأنفها متفحصة، وأخيرا هتفت هامسة في خبث نضح من كل حرف خرج من بين شفتيها:

- الراچل يستاهل.. بس يا ترى جصاد اللي هعمله هتجدميلي إيه يا

بت الناس!؟

أخرجت شامة منديلا مصروما على شئ ما يضمه لتناوله إياها لتختطفه المرأة في لهفة تخرج ما بداخل المنديل متأملة في مكافأة ثمينة.. ابتسمت عندما طالعها زوج من الخلاخيل الفضية الثقيلة الوزن هاتفة في سعادة مؤكدة:

- كده يبجى ضمنا الشغل على أصوله.. مجلتيش يا شابة.. الچدع اسميه إيه!؟.. واسم أمه!؟..

اضطربت شامة فما كان لها الرغبة في الإفصاح عن هذه المعلومات.. كانت تريد الأمر بطي الكتمان على قدر استطاعتها.. همست تستفهم:

- هو لازما يعني!؟..

تعجبت العجوز هاتفة:

- واه..ايوه معلوم لازما اعرف اسمه واسم أمه وإلا الشغل يتخربط..

هتفت بها شامة بعد تردد:

- اسميه عسران.. وأمه اسمها چليلة..

تطلعت إليها العجوز لبرهة وأخيرا انفرج فمها المتغضن الذي فقد بعض أسنانه عن ابتسامة أشد مكرا من ابتسامة داهية وهتفت في لهجة متعالية:

- يبجى الحساب ده مينفعنيش يا غالية.. عيزاني اخلي سيد البلد يرمح وراكِ بچوز خلاخيل فضة!؟..

هتفت شامة في ارتباك:

- محلتيش غيرهم.. وأني فعرضك تجبليهم.. وهتشوفي العز اللي هغرجك فيه لو حصل المراد.. اني عايزاه يتچوزني إن شالله ليلة واحدة..

هتفت العجوز صارخة:

- واااه..لهو انتِ!!. ربنا يستر على ولايانا..

هتفت بها شامة متجاهلة ما كانت ترمي إليه:

- إيه جولك!؟.. ناوية ولا إيه!؟..

تنهدت العجوز وهي تضع الخلخال بالقرب منها معلنة موافقتها الضمنية لتتطلع إليه شامة في حسرة فقد كان كل ما تملك أمها من حطام الدنيا وكانت تدخره لزواج إحداهما.. هي أو أختها.. لكنها استطاعت الحصول عليه بالحيلة حتى تقدمه عربونا لجلب الحبيب راكعا حتى باب عشتها راغبا في الوصل الذي تسعى إليه جاهدة..

هتفت العجوز مدعية التضحية:-

هجول ايه!؟. احنا ولايا وانت غلبانة وواد العمدة مفتري ويستاهل.. بس بجولك ايه!؟.. أني لا وعيت لك ولا أعرفك..

هزت شامة رأسها في طاعة لتشير إليها المرأة لباب الخيمة راغبة في رحيلها.. نهضت شامة لتغادر إلا ان المرأة استوقفتها ما أن همت بإزاحة غطاء الخيش عن مدخل الخيمة أمرة إياها:

- بجولك.. بعد تلات ليالي تاچيني زي دلوجت.. هتلاجي طلبك چاهز..

هتفت شامة في لهفة:

- مينفعشي جبل كده!؟..

تجاهلت المرأة الرد على سؤالها باعتباره نوعا من العته واستخفافا بمجهوداتها التي تبذلها من أجل إخراج شئ كهذا العمل الشيطاني الذي تطلب مشيرة لها لتغادر في نفاد صبر..

اندفعت شامة راحلة في عجالة تهرول خارج مضارب الغجر قبل أن يلمح طيفها مخلوق..

*****

دخل عسران على العمدة وأمه الحاجة جليلة هاتفا في لهجة آمرة:

- بجولكم أيه؟!. أني عايز أتچوز.

تطلعت إليه جليلة هاتفة في سعادة:

- واحنا نكرهوا.. ده احنا مستنظرين اليوم ده كيف هلال العيد.. وأني ياما عرضت عليك بنات أشكال ولا ألوان وانت اللي كان طالع عليك.. لااه مش دلوجت..

هتف عسران في حزم:

- اللي رايدها نجاوتي أني.. عاشجها وعايز اتچوزها..

هتف أبوه متعجبا:

- عاشجها؟!.. ومن ميتا الكلام ده يا حيلة أمك؟!..

هتفت جليلة في تعجب مماثل:

- صح يا عسران؟!.. عاشجها صح؟!.. مين دي اللي جدرت تحرك

جلبك؟!..

هتف عسران ساخطا:

- إيه فيه؟!.. هو عسران ده ايه؟!.. ايوه عاشجها وهموت من جهرتي لو مخدتهاش..

هتفت جليلة رابتة على كتفه مهدئة:

- لااه..بعد الشر عليك يا سيد الشباب ونوارتهم.. وماله اعشج كيف ما يحلا لك..بس نعرفوا هي مين.. ده برضك نسب.. وما هتعدي الليلة إلا وأني خطبهالك.. بس جول بت مين..

هتف عسران في ثبات عجيب:

- بت زينة وعچباني..

هتفت جليلة متعجبة:

- من بلدنا يعني؟!..

هتف ابوه في نفاد صبر:

- بت مين يعني؟!..

ساد الصمت لبرهة والذي قطعه العمدة صارخا في لهجة تحذيرية:

- اوعاك تكون حاطط عينك وعايز تتچوز واحدة لا أصل ولا عيلة ولا مال؟!.. ده انت تبجى اتچنيت رسمي..

كانت جليلة تقف صامتة ولم تعقب بحرف واحد بينما هتف عسران في ثورة:

- اني مليش صالح بالحاچات دي.. اني عاوزها وهتچوزها برضاكم

أو غصب عنيكم..

ربتت جليلة على كتف ولدها مهدئة:

- إهدى بس يا جلب أمك.. هنچوزهالك.. بس بشرط..

هتف العمدة معترضا:

- تچوزيه مين!؟.. أنتِ بتجولي أيه؟!.. وهو أنتِ دريانة هي مين من أساسه؟!.. أني..

تطلعت إليه جليلة بنظرة مهددة تحمل الكثير من الصرامة ما دفعه ليبتلع كلماته التي كان يهم بنطقها خارسا لسانه وعسران يهتف في لهفة:

- شرط ايه؟!.. أني أعمل أي حاچة.. بس چوزهالي..

هتفت جليلة في ثبات:

- تتچوز..

هم عسران بمقاطعتها لكنها عاجلته هاتفة:

- بس عروسة على هوانا.. نختارهالك احنا حسب ونسب وعيلة.. نتشرفوا بيها جصاد الخلج.. واللي انت رايدها هتتچوزها برضك.. بس فالسر.. بعد چوازك من العروسة اللي نختارها.. إيه جولك؟!.. هو ده شرطنا.. يا كده يا بلاش..

هتف عسران في سرعة:

- موافج.. اعملوا ما بدالكم بس اتچوز اللي رايدها..

واندفع للخارج تاركا أبوه يتطلع نحو جليلة في حنق لتهتف الأخيرة في

نبرة قلقة:- الواد ده فيه حاچة مش مريحاني ولازما نچوزه بسرعة..
هتف العمدة عندما بدأ يدرك إلى ما ترمي:
- وماله.. فيه بت فدماغك؟!..
هتفت جليلة مؤكدة:
- البنات كَتير..بس لازما نچوزه جبل ما البت اللي رايدها دي تلوف عليه وتلعب براسه اكتر من كده..
هتف العمدة وهو يضع عباءته على كتفيه مغادرا:
- اعملي ما بدالك بس إلحجي ولدك جبل ما الفاس توجع فالراس.. لأن البت دي شكلها كلت بعجله حلاوة..
هزت رأسها ولم تعقب فقد كان رأسها يبحث عن العروس المناسبة ذات الجمال الآخاذ والأصل حتي تستطيع أن تحيد نظرات ولدها عمن سواها مهما كان جمالها..

*****

هلت ساعات النهار الأولى بوصول خبر ظهور جثة ما لنقطة الشرطة بالنجع والتي انتقل ضابطها سريعا الى موقع ظهورها حتى وصول النيابة ورجالها لمعاينة موقع الحادث وجمع التفاصيل للوصول لمرتكب الجريمة التي على ما يبدو تمت منذ وقت ليس بالقريب.. فظهور الجثة المشوهة إلى حد كبير بفعل الدفن وكذا اقتطاع الذئاب لأجزاء منها جعل من الصعب التعرف على صاحبتها من الوهلة الأولى..
ساد الصمت المشحون بالترقية بهتاف أحد العساكر للضابط مؤكدا

على وصول ممثل المباحث.. تحرك الضابط لاستقبال ضابط المباحث مطلعا إياه على بعض التفاصيل ليعاين الأخير موقع الجريمة موجها حديثه للعمدة متسائلا:

- هو فيه بنات اختفت من النجع الفترة اللي فاتت يا عمدة؟!..

هتف العمدة مؤكدا:

- مفيش غير بت واحدة بس يا باشا.. بيجولوا إنها هربت مع واحد غني عشان يتچوزها من غير علم أهله.. أختها بتجول كلام تاني.. أن أختها اتچوزت واحد من نچع بعيد وهي لا تعرفه ولا تعرف فين طريجها ومحدش عارف إيه الصح يا بيه..

هتف ضابط المباحث ممتعضا:

- ويعني هي فرقت أيه؟!.. هربت معاه ولا مهربتش.. المهم هي فين؟!.. هات لي البت دي يا عمدة..

هتف العمدة:

- مش هلاجيها فعشتها دلوجت يا بيه.. دي بتچري على أكل عيشها من فچر ربنا مع التملية.. كل يوم فنچع شكل..

هتف ضابط المباحث وهو يرحل ومعه رجاله موجها حديثه لضابط النقطة:

- طيب يا حضرة الظابط شوف لنا البنت دي فين وهاتها نحقق معاها..

هتف ضابط النقطة في طاعة:

- أوامرك يا فندم..

هتف العمدة في حسرة:

- إيه ده يا باشا.. هوو انت مش هتشرفنا؟!..

هتف ضابط المباحث متعجلا:

- معلش.. أنا جيت للمعاينة وراجع بسرعة.. ابعت البنت ضروري يا حضرة الظابط عايزين نشوف القضية دي هتخلص على إيه..

هتف العمدة في حماسة:

- ربنا يعينك يا باشا.. والبت هتكون عندك اول ما ترجع..

رحل ضابط المباحث ومعه بعض الشهود وحملت جثة الفتاة للعرض على الطبيب الشرعي لتحديد أسباب الوفاة وكل ما يخصها من معلومات يمكن أن تساعد في الوصول للجاني..

*****

تعالت الزغاريد والعريس يهم بدخول غرفة عروسه.. دخل عسران وأغلق الباب خلفه يستشعر ضيقا عجيبا وكأنما يطبق أحدهم على جانبي رقبته ممسكا بخناقه قاسما ألا يتركها حتى يزهق روحه.. كيف يمكن أن تكون هذه مشاعر رجل ليلة عرسه؟!..أنه يكاد يقسم أن ما يخيم على نفسه من كآبة بهذه اللحظة لم يستشعره قط حتى ولو بمأتم أغلى الناس على نفسه.. تقدم خطوات في تثاقل نحو عروسه التي كانت توليه ظهرها منتفضة خجلا في انتظار أن يقترب منها عريسها ليرفع عن وجهها الصبوح المشرب بحمرة الحياء خمارها

التلي الأبيض..
وصل حتى أصبح يقف قبالتها تماما ما جعل قلبها يخفق في جنون.. إنه عسران حلم بنات النجع جميعهن وسيد شبابها والعمدة المنتظر بعد عمر طويل لأبيه.. عسران الذي أصبحت اللحظة عروسه وشريكة أيامه وعمره القادم وأما لأولاده عما قريب..
منذ جاءتهم أمه خاطبة وهي تحلم باليوم الذي ستصبح فيه زوجة العمدة وسيدة هذه الدار وكذا سيدة النجع الأولى..
رفع عسران كفيه المرتعشتين بلا حول منه ولا قوة نحو خمارها يحاول إزاحته محاولا الشعور بالثبات الذي لا يعلم أين ذهب من الأساس.. ماذا دهاه؟!..وكأنه غر لا خبرة له مع صنوف النساء.. ترتجف أوصاله ويهتز قلبه بين جنباته كأنه بصدد أمر جلل.. أخيرًا رفع الخمار عن وجهها وما أن أبصر قسماته المرعبة حتى جحظت عيناه في صدمة وابتعد متقهقرا للخلف عدة خطوات دفعتها لتهتف في اضطراب:
- إيه في يا سي عسران؟!.. إيه اللي چرى؟!..
كانت تتقدم نحوه لعلها تهدئ من روعه قليلا لكنه أخذ في الصراخ وهو يرى سحنتها الشبيهة بشيطان رجيم تقترب منه.. علت الصرخات لتكسر حاجز الحوائط الفاصلة بين حجرته وحجرة أمه وأبيه.. واللذان انطلقا كالريح نحو الغرفة دافعين بابها في قلق ليتطلعا لولدهما الوحيد ملتصقا بأحد أركان الحجرة يصرخ في هيسترية مشيرا نحو عروسه التي كانت تجهش في بكاء مرير لا تعرف ما عليها

فعله وقد نفر منها عريسها في الليلة التي حلمت بها طويلا ونسجت الأحلام الوردية حولها..

مدت أمه يدها نحو عروسه مبعدة إياها خارج الغرفة تسألها في اضطراب:

- إيه في؟!.. عِملتي إيه فالواد؟!..

هتفت العروس في أحرف متعلثمة:

- والله ما عِملت حاچة ياما..ده أول ما وعيلي بجي يصرخ كيف ما أنتِ وعياله كده.. كنه شاف عفريت..

وارتفع صوت نشيجها مما دفع أمه لتأمر زوجها الذي استطاع تهدئة عسران أن يحضره لخارج الغرفة..

خرج عسران ومعه أبوه لتدفع أمه بعروسه لداخل الغرفة مغلقة الباب دونهما هاتفة في لهجة تهديدية من الطراز الأول:

- بجولك إيه يا بت.. عارفة اللي حصل الليلة دي يخرج بره.. هجطع فرطك.. أني اللي چبتك هنا وچوزتك ولدي وأني اللي اجدر اخرچك بكرة بفضيحة تعيشي انتِ وناسك بعارها ليوم الدين.. فاكتمي نفسك.. ولا حتى تبكي.. عايزة أهلك لما ياچوك بالصباحية يلاجوا بدر التمام جصادهم مش بومة شوم.. فهماني؟!..

هزت العروس رأسها في طاعة تمسح دموعها في سرعة مؤكدة أنها وعت كل حرف من كلام أم زوجها الذي يبدو أنه فقد عقله بلا رجعة وتقود حلم العمر في السلطة والجاه ودخلت إلى هذا البيت فقط لتكون

زوجة بالاسم لهذا المجذوب..

*****

وقفت خارج الغرفة في هذه الردهة الباردة.. يغدو ويروح بطولها الكثيرين وهي ما تزل على حالها منذ ساعات.. تقف حتى كلت قدماها ما دفعها لتفترش الأرض أمام الحجرة لا حيلة لها إلا الانتظار..

خرج شخص ما من داخل الغرفة مصحوبا بأحد العساكر الذي يرافقه مكبلا مرفقيه بسلاسل من معدن جعلت قلبها ينقبض في خشية.. كانت نظراتها معلقة بذاك المتهم ومرافقه عندما هتف بها العسكري المرافق لها في حزم:

- همي يا بت.. حضرة سعادة ظابط المباحث عايزك..ادخلي..

لم تنبس شفتاها بحرف وهي تجر قدميها جرا حتى استقرت داخل الحجرة القيمة الأثاث..

تسمرت موضعها ليهتف بها وكيل النيابة أمرا في لهجة لطيفة مشيرا للمقعد قبالة مكتبه:

- تعالي يا شامة اقعدي.. مش اسمك شامة برضو؟!..

هزت رأسها في طاعة وسارت في بطء حتى وصلت المقعد وجلست في اضطراب ليهتف الضابط مطمئنا:

- متخافيش..احنا هنسألك كام سؤال ونخليكِ تروحي..

واستطرد متسائلا:

- اسمك الرباعي أيه؟!..

همست بصوت متحشرج:

- شامة عواد محروس التايب..

أكد وكيل النيابة:

- ارفعي صوتك يا شامة عشان اللي بيكتب المحضر يسمعك..

هتفت باسمها من جديد بصوت أعلى ما دفع الضابط ليوجه سؤاله الثاني دون إبطاء:

- عمرك كام سنة؟!..

أجابت:

- ثلاثة وعشرين يا باشا..

تساءل الضابط مستقسرا:

- أنتِ لكِ أخت توأم.. صح؟!..

هزت رأسها في تأكيد ليتابع:

- اسمها يمامة.. مظبوط؟!..

هزت رأسها من جديد ثم أجابت:

- ايوه يا باشا.

هتف الوكيل:

- طب هي فين؟!.. العمدة قال إن بقالها فترة مش موجودة فالنجع.. تعرفي راحت فين؟!..

هتفت شامة مؤكدة:- لاه يا بيه.. الكدب خيبة.. معرفش.. اللي اعرفه ان فيه راچل غني لاف عليها ووعدها بالچواز.. وهي جالت لي

انه هيتچوزها.. وفيوم غابت وما رچعتشي.. جلت فعجل بالي لازما تكون راحت معاه.. ومن ساعتها مشفنهاش يا بيه.

هتف الضابط متسائلا:

- متعرفيش اي حاجة عن الراجل الغني ده؟!.. يعني من بلدكم ولا بلد تاتية؟!.. اسمه إيه؟!.. أي حاجة عنه؟!..

هتفت نافية:

- لاه يا بيه.. ولا أي حاچة.. هي مرضتيتش تجولي أي حاچة عنيه.. يمكن عشان أني مكنتش موافجة ع اللي كانت بتعمله.. بس مالها اختي.. اني معرفش اني هنا ليه من الأساس؟!.. اني معملتش حاچة يا بيه والله؟!.. ده اني غلبانة وبچري على امي العميا.. وتوك ما عاودت النچع چابوني على هنا..

هتف الوكيل متعجبا:

- هو العمدة مقلكيش..

نظرت إليه في اضطراب:

- يجولي إيه حضرة العمدة؟!.. ده بعت الغفير يچبني من الدار على هنا من غير ما أعرف إيه فيه يا باشا؟!..

هتف الوكيل في نبرة مواسية:

- اصل لقينا جثة بنت مقتولة واحتمال تكون جثة أختك..

هتفت شامة معترضة:

- لاه.. مش اختي.. أني سمعت بالجتيلة اللي لجتوها.. وشفت الناس

حواليها.. بس لاه.. اختي اتچوزت.. ليه تنجتل من الأساس؟!..
وفجأة انفجرت باكية تشهق في وجع:
- لاه.. مش أختي يا بيه.. معلوم مش هي.. أختي عايشة..
أشفق الوكيل على حالها أمرا العسكري بإحضار كوب من الليمون لتهدئتها هاتفا:
- إحنا لسه مش متأكدين يا شامة.. بنقول احتمال.. أصل محدش اختفى من النجع غيرها.. إهدي بس وإن شاء الله خير..
وضع العسكري كوب الليمون قبالتها على الطاولة الصغيرة التي تتوسط المقعدين ليأمرها ليهتف الضابط في هدوء:
- اشربي الليمون.. والغفير لسه بره هيرجعك النجع تاني..
مدت كفها للكوب بكف مرتعشة..ارتشفت بضع رشفات منه ثم تركته ليأذن لها ضابط المباحث بالانصراف لترحل عائدة للنجع باكية أختها الفقيدة..

*****

دخلت الحاجة جليلة الغرفة خلف زوجها الذي اندفع لداخل الفراش يرفع الغطاء على جسده مستعدا للخلود للنوم وكأن شيئا لم يكن..
اندفعت هي بدورها تجاوره هاتفة في سخط لبروده ورد فعله العجيب على ما يحدث لولده:
- أنت هتنام؟!.. وليك نفس يغمض لك عين بعد اللي حصل ده؟!.. أما أنت راچل بارد صحيح..

انتفض العمدة دافعا الغطاء عنه هاتفا بها في حنق:

- عايزاني أعمل إيه يعني؟!..اجعد حاطط يدي على خدي أعدد كيف الحريم.. ولا أجول يا ناس غيتوني ولدي اتچنن ليلة دخلته؟!

هتفت به في سخرية:

- لاه يا ناصح..نجعد نشوفوا إيه فيه؟!.. بجي ده ولدك اللي داير ولافف ومخلاش.. ياچي يعمل كده ليلة دخلته؟! لاااه والله ده ما يخيل عليّ.. ولدك معمول له حاچة..

هتف العمدة مستفسرا:

- حاچة إيه؟!..

هتفت به في غضب:

- هيكون إيه يعني؟!.. معمول له عمل يابو المفهومية.. ولازما اشوف هنحلوها كيف؟!.. الواد كان مطمع لبنات البلد كلهم.. أكيد وحدة بت حرام سحرت له..

هتف العمدة ساخرا:

- إيوه.. وانتِ ما شاء الله عليكِ.. خبيرة..

هتفت في امتعاض:

- جصدك إيه يعني؟!.. عِملت لك عمل عشان تتچوزني؟!.. والله انت الكسبان لو كان ده حصل صح.. وأني اللي ودرت روحي معاك.. بلا هم..

هتف العمدة وهو يوليها ظهره يستعد للنوم من جديد:

- متشكرين يا بت الأصول.. سيبيني أنام بجى.. أني واجف على رچلي من صباحية ربنا مع الأعيان والمأمور اللي حضروا فرح ولدك اللي ختم باللي ختم بيه ده.. روحي اعملي ما بدالك واعتجيني لوچه الله..

هتفت به في حنق:- معلوم هروح..اومال هجعد چنبك..لازما اعرف إيه فيه..

وانتفضت تعد العدة لتعلم ما يحدث ولم تكن تدرك أن ولدها قد غفل الجميع وخرج من الدار إلى حيث فقد قلبه..أو ربما عقله..

*****

كانت الزينات وصوت الطبول والمزمار يصل لأخر نقطة بالنجع..ولما لا!؟.. وهل هناك مناسبة تستدعي كل هذا الصخب أكثر من زفاف ابن العمدة!؟..

ثلاث ليال وهي تستشعر أن روحها تفارق جسدها.. ثلاث ليال تموت وتحيا فاللحظة ألف مرة وهي تدرك تماما أنه سيكون لغيرها..

لقد أحبته وكذلك أختها وعدة فتيات بالقرية لكنه لم يعيرهن إلتفاتا بعد أن نال ما كان يرغب به.. أدار وجهه ورحل باحثا عن صيد آخر.. فتاة أخرى ينل ما يشتهيه من فاكهتها المحرمة وينتشي لنيل قلبها ثم يلق بها بعيدا كالمنبوذة بعد أن أعطت ما استبقت شيئا..

تساءلت بنفسها في غيظ.. أين مفعول ذاك السحرالذي وضع له بالطعام!؟.. لو لم تره بعينها يتناول الطعام لاعتقدت أنه لم يذقه

حتى..

ستذهب لتلك الغجرية النصابة والتي يبدو أنها نالت خلجال أمها الفضي بلا طائل..

كان النجع بأكمله يرقص فرحا فقد سيقت الذبائح ليفرق لحمها على كل ذاهب وآيب.. تطلعت يمينها إلى تلك اللفافة البنية التي تحمل نصيبها وأمها وأختها الحاضرة الغائبة في حنق ورغم اشتهائها لقطعة لحم لم تذقها من أيام العيد الكبير إلا أنها حملت اللفافة واندفعت نحو الجبل تعوي مثل الذئاب وكأنها من بني جنسهم..

اقترب الذئاب بالفعل في توجس لتلق لهم بقطع اللحم قطعة وراء الأخرى في تشفٍّ سعيدة أنها استطاعت التغلب على هوى نفسها وألقت بها دون أن تمسها..

كانت تتطلع للذئاب في نشوة عجيبة وكأنهم من تربية يدها احتضنتهم صغارا وها هي تراهم أمام عينيها بهذه الشراسة فتشعر بالفخر.. تركت موضعها وعادت لعشتها وما أن وطأت عتبتها حتى سمعت صوتًا مألوفًا يناديها هامسا.. شعرت بالذعر للحظة قبل أن تستدير متطلعة لعسران في صدمة.. كيف يمكن له أن يكون هنا اللحظة وقد انفض سامر الزفاف منذ ساعة وأكثر!؟.. ألا يفترض أن يكون الآن بأحضان عروسه ينعم برفقة ربة الصون والعفاف!؟..

لم تحرك ساكنا لكنه اندفع نحوها كالمسوس هامسا وهو يضمها إليه في قوة:

- أني رايدك يا شامة.. رايدك ومش هسيبك إلا وأنتِ حلالي..

هتفت غير مصدقة تعتقد أنه يهزي:

- أنتِ واعي ولا كنك شارب حاچة!؟.. انت بتجول الصدج!؟..

أكد متشبثا بها بشكل لم تعهده سابقا هاتفا في لهفة:

- همي ياللاه تعالي معاي..

أكدت وهي تضع شالها على رأسها في فرحة:-على فين الساعة دي؟!..

أكد وهو يجذبها خلفه:

- تعالي نروح لأجرب مأذون نكتبوا كتابنا..

هتفت في عدم تصديق:

- عن چد!؟..

هتف عسران هاتفا:

- أني سبت البت اللي أبويا چوزهالي غصب عشان جلت له أني رايدك.. هربت منيها وچيت لك.. ياللاه جبل ما حد يوعالنا..

اندفعت معه لا تسعها الفرحة وقد أدركت أن تلك الغجرية لم تخدعها بل صدقت معها في كل حرف..

*****

سحر

سار ذاك الظل الأسود متلصصا يتطلع حوله في قلق واضح حتى وصل لتلك الخيمة ودفع قطعة الخيش عن مدخلها وما أن أصبح بالداخل حتى دفع عنه غطائه الأسود أمام تلك العجوز الشمطاء التي ابتسمت في سعادة ما أن طالعها محيا امرأة العمدة في قلب خيمتها.. لقد نجحت في جلبها إلى هنا من جديد بعد كل تلك السنوات..

هتفت العجوز في تثاقل تدعيه ولا مبالاة مدروسة:

- واااه..الحاچة چليلة بذات نفسها هنا؟!.. والله زمان يا حاچة.. مسير الحي يتلاجى..

هتفت جليلة في نزق وهي تجلس قبالتها:

- بجولك أيه؟!.. ممنوش عازة الرط الكتير ده.. تاخدي كام وتفكي العمل اللي معمول لولدي؟!.

هتفت بها العجوز ساخرة:

- ومين جال أن معمول له عمل م الأساس؟!..

هتفت جليلة في خبث فطري:

- بجولك إيه يامرة.. إحنا دفنينه سوا.. فبلاها ملاعيب شيحة وشغل حلج حوش اللي عتعمليه ده.. جولي دفعوا لك كام عشان تعملي كده

فولدي وعشان تچيبيني لحد عندك من تاني؟!.. جولي واني هدفع لك اللي دفعوه الطاج تلاتة بس فكي العمل عن الواد..

تنهدت العجوز هاتفة في لهجة كستها بنبرات مدعية للظلم الذي وقع عليها:

- والله اني عمري ما أضر ولدك ابدا.. ده واد الغالية..

ابتسمت جليلة ابتسامة خبث ساخرة لتستطرد العجوز في مهادنة:

- لكن عشان غلاوتك يا أصيلة مجدرش أرد لك طلب أبدا.. عيوني فدا الغالي واد الغاليين.. وأني مش هطلب.. بس كلك نظر.. هو انتِ حيلتك أغلى منِه؟!..

دفعت جليلة بيدها لخلف رقبتها تفك ذاك العقد الذهبي الثمين المكون من عدة طبقات تمثل ثروة لا يستهان بها.. جمعته في كفتي يدها تداعب به نظرات العجوز التي بدأ لعابها في السيلان شهوة..

ألقت بالعقد الذهبي ليسقط بحجر الغجرية العجوز التي حملته بين كفيها مشدوهة لجماله وقد أيقنت أن ثمنه الباهظ سيكفل لها عيشا كريما حتى مماتها.. لقد كانت تتطلع إليه أشبه بكلب جائع يقف أمام باب القَصَّاب يوم تعليق الذبائح يسيل لعابه لرائحة اللحم ممنيا نفسه ببعض العظام..

ضمت العجوز العِقد لصدرها برهة ثم مدت كفها تضعه بحرص في أحد الصناديق العديدة المحيطة بها متطلعة لجليلة هاتفة:

- ولا يكون عندك فكر يا ست الناس..اعتبري المراد اللي انتِ ريداه

حصل.. تلات ليالي من النهاردة وكله هايبجى عال..

نهضت جليلة متجهة نحو بردتها السوداء وشالها الأسمر ترتديهما هاتفة بنبرة صارمة دون أن تلتفت نحو العجوز:

- تلات ليالي يا سماهر.. تلاتة بالعدد.. ولو ملجيتش اللي ريداه كان.. أني مش هجول أني عمل إيه.. أنت دريانة زين أني ممكن اعمل إيه..

هتفت سماهر العجوز في نبرة طيعة:

- معلوم يا ست الناس.. معلوم.. متجلجيش.. كله هايبجى تمام..

هتفت جليلة في لهجة شديدة ونبرة قوية واثقة:

- چليلة مبتجلجش.. وانتِ عارفة كده وخبراني زين.. چليلة تأمر والكل يطيع.. فهماني؟!..

أومأت سماهر رأسها بطاعة وما أن أندفعت جليلة لخارج الخيمة حتى اتسعت ابتسامتها في سخرية متطلعة لموضع جليلة حيث غابت..

*****

عاشت معه أيام لم تكن تحلم أن تحياها.. تمتعت بمحبته التي كانت تصبو إليها وحنانه.. كانت أيام أشد حلاوة من الشهد وأروع من أن تكون واقعا.. وقد صدق حدسها واستيقظت على انتهاء ذاك الحلم الرائع عندما رآها تسير جواره تناديه في غنج متوقعة رده المشتاق مثل كل مرة تقابله فيها مصادفة فيتبادلان نظرات الهوى ووعد باللقاء حيث عش الحب الذي يجمعهما سويا في ذاك الغيط القريب من عشتها..

لكن ما باله اليوم لا يعرها التفاتا كأنه لا يعرفها من الأساس.. هتفت تستوقفه:

- عسران!؟.. إيه في!؟.. أني ضايجتك فحاچة!؟..

تطلع إليها كأنها فقدت عقلها متعجبا من جرأتها هاتفا في صفاقة:

- مالك يا بت!؟.. هو حد كان چه چارك!؟.. ده إيه البلاوي اللي بتتحدف علينا دي!؟..

وقفت في دهشة من ردة فعله واعتقدت أن أحدًا من بيت زوجته المصون أو ربما واش ما يتعقبه لنقل أخباره لأبيه.. ذاك ما دفعه لتجاهلها ومعاملتها بمثل هذا الجفاء..

همست بالقرب منه بضع كلمات تخبره أنها في انتظاره حيث اعتادا اللقاء.. تطلع خلفها بعد أن رحلت متحيرا هل يذهب.. أم يتجاهل دعوة كهذه لا ترد جاءته على غير ميعاد!؟..

تركته محتارا واندفعت هي في ثورة باتجاه مضارب الغجر.. فقد استشعرت بحدسها أن ما يحدث لا يمكن أن يكون طبيعيا.. وأن يدًا تدخلت لتنهي فصل السعادة الذي كانت تعيشه أخيرا..

اندفعت لداخل الخيمة هاتفة في غيظ:

- بجى كده تبعيني!؟.. عِملتي إيه غير اللي اتفجنا عليه؟!..انطجي يا شورة الشوم..

هتفت العجوز ساخرة:

- دلوجت بجيت شورة الشوم!؟.... لو اني شورة شوم صحيح.. چيالي

ليه اعدل اللي مال!؟..

هتفت هي في ثورة متجاهلة كل ما قالته العجوز سماهر:

- عملتي أيه!؟.. إنطجي..

وجلست في انهيار وانفجرت باكية مستطردة في حسرة:

- ده أني ما صدجت الدنيا طابت وراجت.. حرام عليكِ.. جولي عملتي ايه..

هتفت العجوز مشفقة:

- عملت اللي كان على كد فلوسك.. وعملت اللي كان على كد فلوسهم..

انتفضت متطلعة لها في اضطراب:

- جصدك مين؟!.. ناسه!؟..

هزت العجوز رأسها مؤكدة وهمست في صوت متحشرج خفيض:

- أمه جاتني وجالت إنه مربوط عن عروسته.. متعرفش إنه عايش مع عروسة تانية وفملكوت تاني.. رمت بياضها وكان كتير.. هياچي إيه خلخالك الفضة چنب اللي رمته جصادي من دهباتها..

هتفت شامة في غيظ:

- كلبة فلوس..

وبصقت على أحد الجوانب في اشمئزاز لتنفجر العجوز مقهقهة في لامبالاة وكأنها لم تسب لتوها وهتفت في برود:

- ومين فينا مش عبد للجرش.. والجرش صياد.. والغاوي ينجط بطاجيته يا ست البنات..

هتفت شامة في صدمة:

- يعني كده خلاص!؟.. معدش راجع ليا تاني!؟.. نسيني ونسي أيامي..

مصمصت العجوز شفتيها في إشفاق على حال الصبية التي اعتقدت أنها فقدت عقلها وهي تحادث نفسها بهذا القهر الذي يخلفه وجع الخذلان بالقلب.

نهضت شامة في تثاقل في اتجاه قطعة الخيش الكائنة بمدخله دافعة بها بعيدا حتى تمر للخارج متطلعة حولها في تيه فقد أصبح آخر أمل لها في بقائه رماد تزروه رياح القوة والسلطة..

*****

ثلاث ليال ظلت على نارها تتطلع لولدها الذي يغيب الليل بطوله بعيدا عن حجرة عروسه المتروكة تجتر مرارة بعاده دون أن تستطيع الشكوى بكلمة.. ثلاث ليال مرت وهاهي تنتظره الليلة لترى إذا ما كانت العجوز قد صدقتها أم أنها خالفت وعدها..

كانت تجلس بذاك الركن القصي من القاعة التي يطل مدخلها على مدخل الدار الواسعة وما أن هل حتى انتفضت نحوه تمسك بكفه ليتعجب من أفعالها متطلعا نحوها هاتفا:

- إيه في ياما؟!.. سحباني وراكِ ليه كده؟!..

كانا اللحظة أمام غرفته أو بالأصح غرفة عروسة المنبوذة.. دفعت به أمه نحو الباب أمرة إياه:

- ادخل لعروستك ياللاه.. اخلص..

تنهد عسران هاتفا في حنق:

- لاااه..

أمرته جليلة من جديد دافعة به نحو الباب الذي شرعته:

- بجولك ادخل..

دفعته للداخل وأغلقت الباب وجلست أمام الغرفة في ترقب..

انتفضت العروس لمرآهُ متوقعة تكرار ما حدث من هياج في ليلة عرسهما متطلعة نحوه في توجس.. رفع عسران ناظريه نحوها أخيرًا بعد أن كان يتطلع بعيدا بأركان الغرفة فشهق في صدمة.. ارتجفت ذعرا ليتقدم نحوها مبهوتا مأخوذا بجمالها وما أن توقف قبالتها حتى هتف في إعجاب:

- إيه الچمال ده كله؟!..

بدأت العروس تلين متطلعة إليه في عدم تصديق هامسة في حياء:

- صح يا سي عسران؟!.. عچبتك؟!..

هتف عسران متطلعا لمحياها النضر وهو يرفع رأسها المنكس حياءً متشبعا من قسماتها الخلابة المشربة بحمرة الخجل:

- معلوم عچبتيني.. ده أنتِ تعچبي الباشا.. تعالي..

تمنعت العروس في اضطراب وهو يضم كفها بكفه جاذبا إياها خلفه.. استشعر معارضتها فلم ينتظر موافقتها بل أسرها بين ذراعيه وبدأ في ممارسة سيطرته عليها حتى أزعنت تاركة له الأمر ليطلق عنان رغباته مرضيا شهواته التي لا حد لها..

كانت أمه ما تزال تجلس أمام الغرفة وقد اقسمت ألا تتزحزح عن موضعها حتى تأتيها البشارة ليخرج لها عسران بعد بعض الوقت لتتطلع نحوه في ترقب فهز رأسه في إيجاب مؤكدا أن الأمور سارت على ما يرام لترتفع عقيرتها بالزغاريد المتعاقبة مندفعة نحو حجرة العروس مستقبلة كنتها بين ذراعيها في فرحة مطلقة سرب جديد من الزغاريد.. وقد ارتاح قلبها فقد أصدقتها العجوز وعدها..

*****

كانت تتطلع لهن في لامبالاة وهن يتقافزن في صخب كأطفال صغار فاجأتهم الأمطار لتهطل بهذه الغزارة..

لم تبتسم حتى لمزاحهن أو شدو بعضهن بتلك الأغنية القديمة التي يحفظها سائر الأطفال مرددين إياها عند ظهور المطر بطول مصر وعرضها مع اختلاف الكلمات:

يا نطرة رُخِّي رُخِّي.. على شباك البتّ أختي..

والبت أختي سنيورة.. شاغلة الترترع القُورة..

زاد صخب صويحباتها المرافقات لها بالعنبر لكنها لم تتزحزح عن موضعها بل ذهب خاطرها لموضع آخر.. إلى عشتهن الصغيرة هناك بالصعيد والقابعة بين أحضان الجبل والتي كان يوم سقوط المطر بالنسبة لها حدث جلل رغم ندرة حدوث ذلك فالصعيد لكن إذا ما قدرت السماء وبكت حتى ولو بعضًا من دمع شحيح فكان ذلك يوم شؤم عليهن.. فتلك العشة الخوص لم تكن لتحتمل المطر وزخاته..

تناهى لمسامعها اللحظة صوت سقوط قطرات المطر على بعض الأواني النحاسية الموضوعة جانبا بأحد اركان العشة والتي كانت تمنعها النوم يومها وبدأت تكرره في رتابة:

- تك..تك..تك..تك..

جاءها صوت أمها من الداخل مناديا:

- إعملي شوية شاي لچل ما ندفوا فالبرد ده يا بتي..

هتفت هي:

- مفيشي سكر ياما.. معدش إلا تلچيمة شاي..

تنهدت أمها في حسرة هاتفة:

- إعمليها.. بلاها سكر.. شاي مر كيف المرار الطافح اللي دايجينه..

صنعت لها كوبا من الشاي واقتربت تضعه بين كفيها ومعه قطعة من خبز يابس لا تسمن ولا تغني من جوع..

هتفت الأم في ترقب:

- مفيشي أخبار عن أختك برضك!؟..

هزت رأسها نفيا ثم تذكرت أنها لا تراها فهتفت نافية:

- لااه.. جلت لك راحت ياما.. واللي بيروح ما بيرچعشي..

ونهضت مبتعدة لتظل أمها على حالها تكرر عديدها الذي لا ينقطع..

عادت لواقعها وقد استشعرت أن الهدوء ساد قليلا لتدرك أن رفيقات العنبر فقدن شغفهن بالمطر الذي مازال يهطل بالخارج لتنهض هي متسلسلة من فراشها في هوادة تجاه تلك النافذة المشرعة والتي صنع

المطر بركة مياه أسفلها مباشرة..
وقفت بأقدام حافية تطأ بركة المياه وفتحت النافذة على مصرعيها مخرجة ذراعيها من بين القضبان الحديدية لتسقط القطرات مداعبة باطن كفها لتبتسم في بلاهة ابتسامة طفولية وقد بدأت في الشدو بصوتها المحشرج لقلة الحديث والخافت الذي لا يسمعه إلاها:

يا نطرة رخي رخي..
على جَرعة البت اختي..
واني اختي جَرعة جَرعة..
خدها الديب وطلع يِرْعَى..

*****

كانت ليلة ظلماء بلا قمر لا تكاد ترى كفك نفسها من شدة العتمة..
ليلة باردة ومظلمة وعواء ذئاب الجبل الذي يعلو بالأفق القريب والتي لا تشبع أبدا يزيدها رهبة..
تسلل ذاك الظل الملثم نحو تلك الخيمة المتطرفة بمضارب الغجر..
دخلها في غفلة من صاحبتها التي كان النعاس قد جذبها لترقد موضعها أمام ركوة النار وبعض الأبخرة والطيب الذي تدفع به نحو المبخرة من حين لآخر مُكسبا الغرفة جو من الرهبة يؤثر على مريديها..
بدأ الملثم في التقليب بحذر بين الصناديق المختلفة الأشكال والأحجام والمبعثرة هنا وهناك عن شئ ما.. حركاته رغم حذرها كانت مضطربة

وعشوائية ما أيقظ العجوز التي هتفت في صدمة:

- انت مين؟!..

وهمت بالصراخ عندما أيقنت أنه شخص مجهول جاء لسرقتها فاندفع نحوها مكمما فمها.. قاومته بكل ما أوتيت من قوة لكن كانت الغلبة بالتأكيد له.. كانت مقاومتها شرسة رغم عمرها المتقدم ما دفعه ليمد كفه لذاك السكين الذي طالته وطعنها به تاركا إياها ملقاة أرضا مدرجة بدمائها واستكمل بحثه عن شيء ما..وجده أخيرًا فاندفع خارج الخيمة يتأكد أن ما من أحد تنبه للجلبة التي كانت بالداخل مهرولا يتخفى بالظلام متلحفا بالعتمة..

كانت العجوز تلتقط أنفاسها في صعوبة تضع كفها موضع ذاك السكين المغروز بصدرها ولا قدرة لها على جذبه.. كانت تعرف أنها النهاية.. وقد عدت العدة لها ولذاك الغدر الذي كانت تعرف من صاحبه وتأكدت من ذلك عندما وعت للشيء الذي كان يبحث عنه ذاك اللص الموجه من أجل سرقته خصيصا والخلاص منها إذا لزم الأمر..

حَبَتّ بجسدها بصعوبة وأنفاسها تتلاحق حتى وصلت للركوة التي لحسن الحظ كانت ما تزل مشتعلة رغم الصراع والفوضى إلا إنها لم تمس فقد كانت مغروسة بأرض الخيمة الرملية ولم ينطفئ حطبها بل خبت جذوتها قليلا فقط ساعة أن غافلها النعاس..

مدَّت كفّها في صعوبة نحو صدرها وأخرجت حجابا مثلث الشكل مطويًا بشكل عجيب مسه بعض من دماها وألقت به بجذوة النار لتلتهمه في

بطء متلذذة وقد بدأ لهيبها يستعر من جديد..

ابتسمت العجوز في وهن متطلعة للحجاب الملقى وهمست في نبرة متشفية:

- العين بالعين والسن بالسن.. والبادي أظلم.. البادي أظلم..

شهقت وسقط رأسها أرضا جاحظة العينين راحلة عن الدنيا..

*****

كانت إحدى الرفيقات بالعنبر تطرق على خلفية ذاك الفراش المعدني الذي تجلس على أحد أطرافه متخذاه كطبلة يصاحبها غناء رفيقة أخرى بصوت لا يصلح للغناء مطلقا.. تعلو عقيرتها بأغنية قديمة يتنغزل فيها المغني بمحبوبته صاحبة الخال:

أبو شامة وعلامة.. أبو طلة بسَّامة..

ميخفاش عليا عليا.. ميخفاش عليا..

وضعت شامة كفيها على أذنيها تضغط في قسوة لا رغبة لها في الإستماع لهذه الأغنية التي تجذبها عنوة لذكريات لا تريد العودة إليها ولا الولوج عبر أبوابها المفتوحة الآن على مصرعيها..

الرائي لها في هذه اللحظة سيعتقد أنها نافرة من الصوت الأجش الذي يغني لا من أغنية عادية معروفة وسمعها العديد من البشر وهي شخصيا واحدة منهم.. واحدة لم تسمعها فقط بل لقد شدى بها لأجلها..

أغمضت عينيها في قسوة وهي ما تزل تضع كفيها مغلقة مسامعها

وعلى الرغم من ذلك تراقصت الذكري القميئة أمام ناظريها مجسدة كأنها موشومة بحدقتيها..

هزت رأسها في حدة وما تزل الأغنية بكلماتها التي تمقت تترد على مسامعها من صاحبة الصوت المنفر تلك ما دفعها لتنهض في انتفاضة صارخة بهن في ثورة:

- بس.. بكفياكم.. اخرسوا..اخرسوا...

انتفضت النسوة لصرخاتها التي كانت تتردد باستمرار في هستيرية واضحة ما دفع بعضهن للجوء لأسرتهن هربا من المشاركة في أي أمر قد يخرج عن السيطرة وربما يدفع بهن لحجرة جلسات الكهرباء وجعل البعض الآخر يصرخ في ثورة لثورتها معترضات على فض سامر أنسهن.. الأمر الذي دفع ببعض الممرضات إطلاق الصفير مُعلنات عن التمرد بالعنبر لتتظاهر بعض النزيلات بالنعاس فجأة ويلزم بعضهن الصمت..

ساد الهدوء فجأة إلا من صرخاتها التي تتابعت تشق الأجواء الصماء ليتسع رتق الروح الموجوعة داخل ذاك الجسد الذي تم دفعه ليتمدد على فراش داخل حجرة قاتمة من أجل جلسة كهرباء كوسيلة لتهدئتها ونزع بذور تمردها قبل أن تمد جذورها بأرض نفسها التائهة..

*****

كانت خيوط النهار الأولى تشق عتمة الليل عندما ابتسم ضابط النقطة الذي كان يقف بالقرب من الجثة المغطاة هاتفا بالعمدة في

تهكم:

- خبر إيه يا عمدة؟!.. إيه الحوادث اللي كترت في النجع ده؟!.. لا وقتل كمان؟!.. دي تاني حادثة في فترة قصيرة..

هتف العمدة في تخابث:

- الناس بجت وحشة جوي يا باشا.. والله بنعملوا اللي علينا والغفر متنطورين في كل جيهة.. بس الأمن مش مستتب برضك يا باشا.. تفتكر دي مسؤولية مين؟!..

امتعض الضابط متطلعا نحو العمدة الذي نكس رأسه مدعيا الحسرة على مجهوداته الضائعة بعد أن قذف جبهة الضابط الذي ابتلع لسانه ولم يعقب..

ظهر ضابط المباحث داخل خيمة العجوز الغجرية متطلعا حوله في تعجب لهذه الخيمة الغريبة المكتظة بالعديد من الصناديق والأكياس والكثير من التمائم والأحجبة ليهتف الضابط موضحا:

- دي بقى يا باشا العرافة بتاعت الغجر أو الدجالة بتاعت المنطقة.. عشان كده حضرتك شايف اللي انت شايفه ده..

هز المحقق رأسه متفهما ثم وقعت نظراته على شئ ما داخل ركوة النار المحفورة أرضا داخل الرمال أمام ذاك المقعد القطني المنخفض والذي كان موضع جلوس العجوز الدائم.. أمر أحد رجال المعمل الجنائي بمحاولة الإمساك بهذا الشئ مستشعرا بحسه الأمني أنه الدليل الذي قد يقودهم للجاني قاتل العجوز لكن الرجل لم يفلح

في الإمساك به للأسف فقد تفتت ما أن لامسته الأداة المخصصة للإمساك بالأدلة ليصبح رمادًا من بقايا الإحتراق داخل الركوة..

تنهد المحقق هاتفا:

- جريمة قتل تانية في فترة صغيرة.. واحنا لسه أصلا معرفناش مين القاتل فالمرة الأولى..

تطلع كل من الضابط والعمدة لبعضهما لبرهة قبل أن يهتف الضابط مستفسرا:

- هو مفيش اي جديد في جريمة البنت اللي كانت مدفونة؟!.. استجواب اختها مأداش لحاجة؟!..

أكد محقق النيابة:

- ولا أي حاجة.. بتقول اتجوزت واحد هربت معاه عشان من عيلة وجوازهم فالسر.. طب هو مين.. اسمه ايه.. من أي بلد.. متعرفش؟!.. والبنت زي ما الكل قال غلبانة وملهاش أعداء ولا ليها فحاجة.. يبقى إيه؟!..

صمت الجميع ولم يعقب أحدهم ليهتف ضابط المباحث أمرا:

- جيبوا لي كبير الغجر واللي يعرف كل حاجة عنها.. خلينا نستجوبهم يمكن نطلع منهم بحاجة..

هتف ضابط النقطة:

- اتفضل يا فندم وهيكونوا عندك فالنقطة حالا..

هتف العمدة مؤكدا:

- لاه..المرة دي هتشرفني فداري يا بيه.. ونچبب لك اللي انت عاوزهم كلهم لحد عندِك..

تنهد المحقق موافقا:

- ماشي يا عمدة.. مفيش مانع.. شكل الموضوع مطول..

هتف العمدة في ترحيب:

- يا مرحب بيك يا بيه.. دي الدار هتنور..

سار ضابط المباحث وقد سبقه العمدة مفسحا له الطريق في اتجاه دار الأخير لمباشرة التحقيقات بعيدا عن الصرخات والعويل المقام بين الغجريات لمقتل كبيرتهم وسيدة نساء القبيلة..

*****

كان الصوت الاعتيادي لصرصور الغيط (ابو الجندب) وكذا نعيق الضفادع يتناغمان اللحظة ليشكلا سيمفونية ليلية ريفية بامتياز، وهي تقف في ترقب عند ذاك الجانب المتطرف من حديقة الدار الواسعة..

كانت تنتظر بقلق تمد ناظريها على الرغم من العتمة المحيطة عبر الباب الخلفي للدار متأهبة مجيء أحدهم والذي ظهر أخيرًا قادما في هرولة جعلتها تتنبه تكاد تندفع نحوه لولا بعض من ثبات احتفظت بهم من أجل الهيبة..

اقترب منها ذاك الملثم في وجل يلتقط أنفاسه بصعوبة من خلف لثامه هاتفا في أحرف متقطعة شابها الوهن:

-معلش.. اتأخرت عليك يا ست الناس.. سامحيني.. العجد اهووه..
وأخرج من جيب جلبابه عقدها الذي وهبته للغجرية سماهر منذ أيام قلائل.. تناولت العقد تتأكد أنه عقدها لتهتف في استحسان ما أن فحصته:

- كده تمام.. وانت كمان خد.. حلوانك اهااا.. وفوجه حلاوة من عندي..

مدت كفها بالمال الذي للعجب لم يمد الرجل يده ليناله في لهفة كما توقعت.. ظلت كفها ممدودة لبرهة قبل أن تهتف في حنق:

- مالك يا واد؟!.. ما تمد يدك تاخد حجك..هفضل مادة يدي كده كتير؟!..

مد الرجل كفا مترددة يتناول المال المقدم إليه في سخاء غير معتاد هامسا:

- لامؤاخذة يا ست الناس.. بس أصلك واني بسرج العجد.. الولية صحيت من نومها واني بحاول اسكتها عشان متفضحش الدنيا وتلم الخلج..

صمت الرجل لتهتف هي في صدمة:-

عِملت أيه؟!.. جول يا مخبل.. جتلتها؟!..

أكد الرجل في خزي منكس الرأس هاتفا في اضطراب:

- غصب عني يا ست الناس.. واللّه ما كنت جاصد.. بس جضاها وعمرها خلص على كده..

زفرت في حنق هاتفة:

- وهو عمرها ميخلصش إلا على يدك ويوم ما تروح تچيب لي حاچتي من عنديها؟!.. إيه الحظ ده بس يا ربي!!..

ساد الصمت لبرهة لتهتف بعدها متسائلة:

- حد وعيلك؟!..

أكد في حماسة:

- لاه يا ست الناس.. ولا عين وعيت لي..

هتفت محذرة في لهجة تهديدية:

- ولا توعالك.. تخفى.. سامعني.. تغور وما يعرف لك الچن الأزرج طريج چرة..

وأدخلت يدها بسيالة عباءتها لتخرج مزيدًا من المال مقدمة إياه له هاتفة:

- وأدي كد اللي خدته مرة كمان.. وروح بلاد اللّه لخلج اللّه.. انت يعني لك إيه هنا فالنچع تبجاله؟!..

مد كفه متناولا المال في ابتهاج هاتفا:

- على جولك يا ستنا.. تسلميلنا يا ست الناس.. أي خدمات تاني جبل ما أروح؟!..

هتفت وهي توليه ظهرها راحلة لتعود لداخل الدار ملوحة بكفها في استهانة:

- لاه..ربنا يكفينا شرك..

رحل الرجل بدوره منشرحا بسيالة جلبابه العامرة بالمال على غير العادة ممنيا نفسه بكل ما يشتهيه.. بينما دخلت هي غرفتها تتدلل في غنج حتى وصلت أمام مرآتها لتقف تتطلع لصورتها الحسناء والتي ما تزل تحمل بعضًا من ملامح جمال باق رغم عوامل السن وتقلبات الزمان..

أخرجت عقدها الثمين ورفعت كفيها تضعه حول جيدها من جديد حيث كان منذ زمن ولن يبرحه مرة أخرى وما أن أعادت وضعه تحسسته بباطن كفها ينام في هناء على جيب صدرها لتقر عينها فقد عاد إليها أخيرا..



عشق

تقدم في اتجاه العشة وهمس باسمها لتنتفض في سعادة فها قد جاء بناء على طلبها ولم يخلف ظنها في إعوجاج روحه النجسة التواقة للحرام حتى بعد أن أصبح زوجا وله امرأة بالحلال..

اندفعت لخارج العشة حتى لا تتنبه أمها وهتفت في فرحة:

- چيت ومكدبتش خبر.. تعال..

تبعها في معادنة تعجبها بنفسه هاتفا:

- أنتِ جيباني ليه!؟..

همست وهي تقترب منه في دلال:

- يعني معرفش أني چيباك هنا ليه!؟.. عشان نرچعوا الود الجديم..

تأثر لاقترابها والذي استشعرته بحاستها الأنثوية وجعلها توقن أن ما تصبو إليه سهل المنال لا بعيدًا كما كانت تظن..

مدت كفها تجذبه في غنج خلفها وهو مساق خلفها لا يعي من أمره شيئا إلا الرغبة في قضاء بعض الوقت مع امرأة من الماضي كان يدرك تماما أنها واحدة من النساء التي ذاق على يدها الحب أحفانا.. امرأة أحبته بكل كيانها وعندها من الرغبة ما يدفعها لتعطي المزيد.. فلم لا!؟..

توقفت به عند عشة مصنوعة من بعض الخوص بنتها بنفسها بمنطقة أعلى قليلا عن سفح الجبل..

توقفت.. ليتوقف هو بالتبعية لتهتف به وهي تستدير ناظرة للنجع من عليائها:

- واعي.. الدنيا كلها تحت رچلينا يا سي عسران.. طول عمرها تحت رچلك.. لكن أني عمرها ما كانت إلا لما أچي هنا واشوفها وأحلم حبتين إنها بچد تحت رچلي.. وبعدها..

صمتت فتطلع إليها في تعجب متسائلا في حيرة مخلوطة ببعض الفضول:

- وبعدها.. بتعملي إيه؟!..

ابتسمت وهي تجذب كفه من جديد تجاه عشتها هاتفة في إغواء:

- أجولك بعمل ايه!؟.. بديها ضهري البعيدة.. أنساها.. كأني مفارجة..

أعطى للنجع ظهره مندفعا خلفها لداخل تلك العشة التي فرشت بها مجلسا مريحا جذبته إليه في رغبة ليسقط فترتفع قهقهاتها في نشوة متلقفة إياه بين ذراعيها كدنيا غرورة ستلقي به بعيدا بعد لحظات طاردة إياه من فردوسها الزائف..

مر الوقت بهما سريعا حتى ابتعد عنها متنهدا في راحة متطلعا إليها في عشق كانت المرة الأولى التي تلمح طيفه بحدقتيه.. كاد قلبها أن يلين قليلا لكنها صرخت به أن أثبت فهي نظرات مؤقتة بعدها سيراك

بالطرقات ويتجاهلك كشحاذ تتمنى أن يجود عليك بنظرة..
ما أن هم بالنهوض مبتعدا يتناول جلبابه ليرتديه راحلا إلا وعاجلته بضربة قوية بتلك الفأس التي كانت تخبئها بمهارة بالقرب من موضعها والتي أخذت تسن في حافتها المعدنية النهار بطوله..
استدار متطلعا إليها جاحظ النظرات مصدوما وأخيرا شهق بقوة وفارقته روحه ليسقط أرضا لتلقي بالفأس تتلقفه من جديد بين ذراعيها العاريتين ورأسه المشقوق بأحضانها يسيل دمه على صدرها..
ضمته بقوة وأخذت تحدثه كأن شيئا لم يكن:
- بالك يا عسران اني بحبك كد ايه!؟.. كتير جوي.. اكتر من كل حاچة حلوة اتمنتها في حياتي ومطلتهاش.. ليه بعدت يا عسران.. ليه فضلت عليّ أختي.. شوفت.. أديني حطيت لك العمل فالوكل.. أني عارفة إنك كنت عايز تجتلني أني وتحرج چتتي زي ما اتفجت معاها.. فبعتها هي وجلت لك خدها على كد عجلها عشان هي هتاچيك وتجولك أنها أني.. سبتها تروح وأني جاعدة اتفرچ وانت بتحط لها المنوم فالعصير اللي كنت چايبهولها زي ما كنتوا متفجين علي.. أني تعمل فيا كده يا عسران؟!.. بس معلش.. أني مسمحاك.. ياللاه جوم.. حدتني.. جولي إنك بتعشجني ومش راح تفوتني من تاني..
غرقت هي وجسده في بركة من الدماء لكنها لم تكن واعية من الأساس بما كان يحدث حتى أنها استشاطت غضبا عندما لم يبادلها الرد على أسئلتها معتقدة أنه يتجاهلها فقررت معاقبته هاتفة في ثورة حقيقية:

- أنت مبتردش عليّ ليه يا عسران!؟.. طيب.. أني عارفة إن الطيب معاك ملوش عازة وانت كمان مليكش عندي عازة..

دفعت بجسده بعيدًا عنها ومدت كفها نحو الفأس من جديد وخرجت حاملة إياها بكف جاذبة جسد عسران خلفها بالكف الآخر.. بقوة لا تعرف من أين واتتها.. توقفت عند صخرة ما وبدأت في دفع جثمانه عليها وشرعت في ضرب أجزاء جسده بفأسها لينفصل كل جزء عن كله..

الآن انتزعت كفه من مجمل ذراعه وما أن همت بوضعها جانبا إلا واستشعرت حركة من مكان قريب، وأنفاسًا لاهثة تدنو، وعيونًا متقدة يزداد بريقها لمعانا كلما دنت.. إنهم الذئاب.. أصدقاؤها..

هتفت لهم في مودة:

- شكل الچوع جاتلكم.. وأني واعية كيف الچوع بيعمل بصاحبه.. خدوا..

ألقت لهم بالكف المنتزع واستمرت في صبر تفصل الأجزاء بلا كلل وتلقي بها للذئاب العطشى دومًا للمزيد.. حتى أنهم قرروا التدخل عندما غابت عليهم ولم تلق لهم بالجزء الجديد..

لقد تعبت وجلست لاهثة لأخذ هدنة بعد أن غطت الدماء الساخنة كامل جسدها العاري.. ما دفع الذئاب لجذب جسد عسران أو بالأحرى ما تبقى منه، بينما وقفت هي في منظر مهيب مثير للرعب على أعلى الجرف تتطلع للنجع الغافل في تلك الساعة.. كانت من موضعها هذا

أشبه بتمثال روماني عارٍ من المرمر تم غمره في بركة من الدماء..
تركت الصراع الوحشي الذي تدور رحاه بين الذئاب بالقرب منها واتجهت للعشة لتحرقها.. ارتفعت ألسنة اللهب قليلا ثم عاودت الإنطفاء سريعا بفعل الريح ولأنها لم تجد ما تُغذي عليه لهيبها من أعواد البوص الذي قضت عليه كله في لحظة..
جمعت ملابسها ونزلت في اتجاه عشة أمها والتي دفعت بابها الخشبي المتأكل دفعة قوية كادت أن تسقط من شدتها، لكنها تمالكت نفسها وهي تترنح حتى وصلت لمنتصفها فوضعت طشتا من الحديد الصدئ أسفلها وبدأت تصب الماء على جسدها للتخلص من آثاره للأبد.. أنهت طهرها كما كانت تسميه.. طهرها من بقايا النجاسة وتعلق قلبها به..
لقد انتصرت.. والليلة ليلة عيد لقلبها، وعليها أن تغتسل لاستقباله بما يليق.. عيد القلب القاسي الذي ما عاد يرق لمخلوق، وذاك الإحساس الذي توحش فأصبح ما يحكمه هو قانون الغاب والبقاء للأكثر قوة ودهاء..
ترنحت حتى مجلس أمها بالداخل بذاك الركن القصي المدارى بقطع من خيش والذي كان يجمع أجسادهن متلاصقات يحتمين بأنفاسهن من غدر الزمان وتقلبات أيامه والتي للأسف لم يسلمن منها..
كانت أمها جالسة جلسة عجيبة يسقط رأسها على صدرها فاعتقدت أنها نائمة كعادتها اقتربت منها لعلها تستشعر احتراق صدرها الذي

تكاد نيرانه تطال الأخضر واليابس..

جلست في تثاقل قبالة أمها ويدها مخضبة بحناء الثأر وجلبابها ملطخ بالقليل من نثرات دمائه.. دماء عسران.. فقد انتقمت أخيرًا ممن ظلمها وظلم أختها والكثيرات غيرهما.. نال ما يستحق بعد كل ما نال..

نادت على أمها لعلها تستفيق فهي تكاد تجن إن لم تكن جنت بالفعل.. تستشعر رغبة ملحة في الحديث لأحدهم وإلا سيكون مصيرها الجنون لا محالة..

لم تستفق أمها ما دفعها لتهزها إلا أنها سقطت جانبا ولم تحرك ساكنا..

مرت لحظات من الصمت القاتل الذي كان يطعنها بخنجره المسموم بسويداء قلبها الذي كان قد تحول إلى مضغة عفنة منذ زمن بعيد.. تتطلع لجسد أمها المطرح متيبسا والذي يبدو أنه فارقته الروح متحررة أخيرًا من ذاك الجسد المهان الذي لم ينل راحة ولا هناء يومًا..

مدَّت كفين مرتعشتين نحو عضديّ أمها تجذبها إليها لعل الموت لم يزرها كما توهمت.. أخذت تهزها في تمنٍّ هاتفة بها:

- أمااا..أمااا.. جومي حدتيني.. جومي متسبنيش لحالي.. أني بموت..

لكن كيف لميت فارق الحياة أن يجيب؟!.. ضمت أمها لصدرها ودثرتها بغطائها الصوفي المهترئ، وأخذت تُهدهدها في حُنُوٍّ كأنها طفل تدفعه

لأعتاب النعاس وقد رحل إليه بالفعل وبلا رجعة..

استمرت تهدهد جثمانها بلا كلل، وهي تهمس بصوت متحشرج تنعي أمها على طريقة الأخيرة:

راحوا الحبايب واحد ورا التاني..

وأيه يا دنيا مخبية لجلبي.. من تاني..

أني اللي الكل فاتوني ما عاد لي حبيب..

وهملوني للحزن والوجع.. وحداني..

أخذت تكرر عديدها وأمها بين ذراعيها ولم تذرف عيناها دمعة واحدة.. فقد أصبحت كتلة من حجارة صماء.. وهل تبكي الأحجار؟!..

*****

صياح وجلبة عالية قادمة من داخل غرفة الحبس المودعة بها شامة وبعض النساء قبل ترحيلهن للنيابة لمباشرة التحقيقات..

كانت مشتبهًا بها لا أكثر على حسب شهادة الشهود، فقد كانت الفتاة الأكثر تقربا من عسران في الفترة الأخيرة قبل مقتله.. وكان اختفاء أختها الغامض ذاك يثير الشكوك.. فالكل أجمع أن عسران كان زير نساء ولا أحد يعلم على وجه التحديد إن كان قد أقام علاقة مع شامة نفسها أم مع أختها القتيلة.. لا أحد استطاع الجزم بذلك لشدة التطابق بينهما في ملامح الوجه.. فقد كانتا نسختين لا يمكن التفريق بينهما.. حتى أن بعض الشهود ذهب في القول إن شامة قتلت عسران من أجل اعتدائه على اختها، وقد قتلها ليواري جريمته وخاصة أنه

يعلم علم اليقين أن ما من أحد لها سوى أخت وحيدة وأم عاجزة حتى عن خدمة نفسها بعد أن هرب أبوهما منذ زمن تاركا الذئاب تنهش عرض بناته وتاركا من قبلهم الأيام تفعل بهن ما بدا لها..

صرخ الضابط في غضب:

- إيه اللي بيحصل هنا؟!..

هتف العسكري مؤكدا:

- النسوان چوه الحبس مبهدلين البت الچديدة يا حضرة الظابط..

هتف الضابط في حنق:

- روح اسحبها من وسطيهم لتموت لنا هنا.. دي عليها عرض ع النيابة بكرة..

دخل العسكري ليجذب شامة من بين براثن النساء المتعاركات ليدفع بها لداخل حجرة الضابط ضاربا الأرض بالتحية الميري:

- تمام يا فندم.. المتهمة أهي.. كانوا هيموتوها چوه سعادتك..

هتف الضابط وهو يتطلع نحو شامة التي شعث شعر رأسها الذي خرج جزء منه من تحت غطاء رأسها الأسود الذي تتلحف به.. مع انتشار بعض الخدوش على صفحة وجهها المغبر.. كذا لم يسلم ردائها الأسمر من آثار المعركة فلقد شوق طوليا لما بعد المنتصف بقليل ولحسن الحظ كانت ترتدي جلبابا منزليا أسفله..

هتف بها الضابط في حنق:

- عاملة لي فيها زعيمة وقالبة الزنزانة ليه ياختي؟!..

لم ترد جوابا ليهتف بها الضابط آمرًا:

- اترزعي هناك في آخر الأوضة مسمعلكيش حس لحد ما يطلع النهار وتعدى الليلة دي على خير واسلمكم للنيابة واخلص..

تسمرت موضعها، ولم تفه بحرف، لا تعرف ما سيؤول إليه حالها، فقد بدأ سرها في الانكشاف وعليها الصمت إذا كانت ترغب في النجاة..

هتف الضابط بها من جديد صارخا في غضب موبخا:

- انا مش قولتلك تتلقحي هناك؟!.. اتحركي بدل ما ارميكِ تاني للنسوان فالحبس..

تحركت طائعة فهي لا تريد أن تثير حفيظته على أية حال.. جلست بركن قصي حيث أشار متكومة على نفسها تتطلع حولها في تيه مستشعرة برودة عجيبة تنخر عظامها رغم أن جسدها كان قد اعتاد تلك البرودة واعتادته، لكن هذا البرد مختلف تماما عن ذاك الذي كان يتسلل إليها من شقوق عشتها الواهنة.. كان سقيعا يغلف الروح التي تئن في احتضار.. تغرق في خضم إحساس عجيب لا تدرك كنهه ولا تستطيع تفسيره ولا أحد هاهنا يمد لها يد العون مُفكرا انتشالها من لجّ أمواجه التي تفت بصلابة عزمها على المقاومة..

*****

دخل محاميها لموضع انتظاره لها حتى اقتادوها إليه.. جلست أمامه في سكون كاهن بُودِي اقسم ألا يتحدث لشهور تهذيبا لنفسه..

ابتدرها هاتفا في مودة:

- ازيك يا شامة؟!.. عاملة إيه؟!..

لم ترد على تساؤلاته البسيطة تلك، بل ظل ناظرها معلقا بنقطة ما خلفه جعلته يتلفت لاإراديا نحو موضع تركيزها الشديد وما أن تأكد أنه ليس هناك ما يسترعي الإنتباه عاود النظر إليها معيدا تساؤله من جديد:

- مقلتليش.. عاملة إيه هنا؟!.. الناس بيعملوكِ كويس؟!..

تجاهلت استفساره المهذب من الأساس وعيونها لم تَحِدّ عن نقطة تركيزها الأولى ما دفعه ليهتف في محاولة لجذب انتباهها:

- أنتِ قتلتي عسران بن العمدة ليه؟!..

لم تجب ولاذت بالصمت تتستر خلف أحرف محتضرة وصخب مخالف تماما لسكونها الظاهري مقيما مأدبة من الأفكار والخواطر بذاك العقل الشارد..

هتف يسأل في لهفة يحدوه الأمل أنها قد تجيبه وتساعده على إيجاد ثغرة يخرجها من خلالها من هذه القضية:

- هو فعلا عسران قتل أختكِ عشان كده قتلتيه؟!..

كانت الإجابة نفسها في كل مرة يسأل فيها ما دفعه ليهتف ساخطا:

- لازم تتكلمي..لازم تقوليلي أنا على الأقل إيه اللي حصل.. صدقيني أنا عاوز اساعدك.. أنا المحامي بتاعك.. إحنا اتقابلنا قبل كده.. فاكرة؟!..

ساد الصمت فتنهد هاتفا في حسرة:

- يعني مفيش فايدة؟!.. مش ناوية تقوليلي كلمتين أعرف انجدك بيهم من حبل المشنقة؟!.. طيب..

نهض المحامي مغادرا في إحباط تاركا إياها موضعها لينفرج الباب عن ممرضة اقتربت منها مصاحبة إياها في هوادة حتى باب ذاك العنبر الذي أضحى عالمها بكل جدرانه الباردة لتدفع داخله بين رفيقاتها سائرة تحك الأرض بحذائها المتهالك حتى وصلت لفراشها الذي مددت عليه جسدها وأغمضت عينيها وراحت في سبات عميق..

*****

دُفعت بقسوة لتنزل من عربة الترحيلات مع رفيقاتها لتمثل أمام ضابط المباحث.. كانت تدرك أنه مجرد اشتباه لأنها لديها دافعًا قويًّا لارتكاب الجريمة وقتل عسران.. الثأر لشرف أختها وكذا مقتلها..

سارت في ذاك الطابور الطويل مدفوعة بين خِضَم البشر المتراص على جانبي الردهة الطويلة وصولاً لباب ضابط المباحث الموكل له التحقيق مع المتهمين.. جلسن جميعا وبدأ النداء عليهن واحدة تلو الأخرى حتى جاء دورها أخيرًا بعد أن آيِسَتْ من طول الانتظار..

تقدمت نحو مكتب ضابط المباحث ووقفت قبالته وكانت قد خلعت عنها ردائها الممزق الذي أمرها الضابط بنقطة شرطة النجع بخلعه قبل الخروج من النقطة.. أشار لها ضابط المباحث بالجلوس على احد المقاعد القريبة متسائلا:

- اسمك الرباعي وسنك؟!..

هتفت في أحرف مرتجفة:

- شامة عواد محروس التايب.. ثلاثة وعشرين سنة..

نهض من موضعه ملتفا حول مكتبه حتى جلس على المقعد المقابل لها هاتفا:

- انا عارف يا شامة أن ده مجرد اشتباه.. لكن أنا عايزك تكلميني بصراحة.. تعرفي إيه عن علاقة أختك الله يرحمها بعسران الله يرحمه؟!.. كان فعلا في علاقة تربطهم؟!.. قالت لك حاجة زي دي قبل ما تموت أو بالأصح قبل ما يقتلها؟!..

هزت شامة رأسها نفيا..

ليهتف ضابط المباحث في غيظ:-

إزاي وأنتِ اللي قلتي يوم ما لقينا جثتها واتاكدنا أنها أختك.. أنه كان فيه راجل غني واعدها بالجواز وهربت معاه عشان تتجوزه؟!.. مش ده كان كلامك ساعتها؟!..

تلجلجت من هجوم الضابط وساد الصمت لبرهة قبل أن تنطق هاتفة في تردد:

- ايوه يا بيه صح.. أني جلت كده.. بس ماجلتش إنه ابن حضرة العمدة.. هي جالت لي راجل غني وهتروح معاه ويتچوزها.. مين ده بجى؟!.. ربك العالم..

زفر الضابط متطلعا لها في حنق:

- ما هو مفيش إلا عسران اللي كان بيعشم البنات وبيخلا بيهم.. كل

الشهود قالوا كده.. وقالوا إن أنتِ واختك ملكمش فالمرواح أو المجي إلا عشان تكلوا عيش وعمر ما كان مشيكم بطال..

هتفت شامة ﬞ اضطراب:

- والله يا بيه ما اعرف حاچة ولا ليا ﬞ حاچة..

هم الضابط بالنهوض من موضعه لتسقط عيناه على موضع بقعة عجيبة لفتت انتباهه بين تلك الورود الزاهية المتناثرة على صفحة الجلباب.. اقترب منها بلا حذر هاتفا:

- إيه البقعة اللي على جلبيتك دي؟!..

انتفضت مذعورة مبتعدة تتطلع نحو إشارته لبقعة الدماء المتشبثة بنسيج الرداء..

مادت الدنيا أمام ناظريها وأدركت أنها هالكة لا محالة.. فقد كان ذاك الجلباب هو نفسه الذي قابلت به عسران يوم مقتله.. كيف لم تفطن لتلك البقعة أو حتى تخلصت من الثوب يومها.. لكن كيف يمكنها ذلك وهي لا تملك إلاه؟!..لقد كفنت أمها بجلبابها وجلباب أختها.. فلم يكن لأحداهن إلا عباءة سوداء تخرج بها لقضاء شؤونها وجلباب آخر تنام فيه.. فمن أين لها بهذه الرفاهية لتملك عدة عباءات تبدل بينهن ﬞ سعة؟!..

صبغ اللون الأسود الدنيا أمام ناظريها لتصرخ ﬞ هستيرية متمددة أرضا تتشنج ﬞ ثورة كأنما تنازع الموت..

هرج ومرج حولها لا تدرك من أين تأتيها أصواته وهي تستشعر نفسها

متصلبة الوضع متخشبة الجسد يتناهى لمسامعها أحاديث بشرية تتردد في بطء شديد كأنما يتحدث الناس من تحت الماء ولا يمكن لها تفسير كلامهم..

صرخات وصرخات كانت تصل لوعيها في تتابع بشكل محموم ولم تكن تدرك أنها صاحبتها حتى استكان أخيرًا انتفاض جسدها لينقطع اتصالها بالعالم الخارجي تماما مستشعرة أنها حبيسة جدران نفسها لا رغبة لها في الخروج من تلك الشرنقة التي نسجتها حول ذاتها..

*****

أخذ ضابط المباحث يزفر في ضيق فقد استطاع محاميها الحصول على إذن من النيابة بتحويل موكلته للملاحظة بمستشفى الأمراض النفسية والعصبية لأنه يشك في قواها العقلية ومدى سلامتها ووخاصة أثناء ارتكاب الجريمة..

كان عليه أن يزعن لقرار النيابة ويخرجها من الحبس بعد ما جرى هناك ليودعها عنبر الخطرين بمستشفى الأمراض النفسية والعصبية..

كان يعلم أنها قاتلة.. بل قاتلة مع سبق الإصرار والترصد.. وهو متأكد من ذلك فقد جمع الأدلة الكافية من شهود بجانب ردائها الذي كانت عليه نثرات من دماء القتيل..

نعم هو لم يجد بعد أداة الجريمة والتي ارتكبت بها فعلتها لكن هذه الأدلة تكفي وزيادة لإيصالها ليد عشماوي لولا تلك الثغرة التي

استغلها محاميها بادعائها الجنون لتفلت من عقابها..
أمر العسكري وهو في طريقه لمكتبه بإحضارها من غرفة الحبس الإحتياطي لترحيلها للمشفى.. أودعها عربة خاصة بترحيلات السجناء حتى سلمها للطبيب الذي سيشرف على حالاتها..
هتف الضابط في نزق:
- طبعا يا دكتور مش هوصيك.. أنت عارف الأشكال دي وياما ورد عليك.. بيدعوا الجنون عشان يفلتوا من يد العدالة.. عايزين تقرير فيه الخلاصة..
ابتسم الطبيب الموكل بالإشراف على الحالة، هاتفا في رزانة، فقد اعتاد على التعامل مع رجال العدالة مشرفا على العديد من الحالات التي أودعت عنبر الخطرين من قبل:
- متقلقش يا فندم.. في خلال أربعين يوم من النهاردة هيبقى التقرير عن الحالة جاهز بإذن اللّه..
هتف الضابط متبرما:
- أربعين يوم كتير الصراحة.. دي حالة واضحة..قتل مع سبق الإصرار والترصد..
قهقه الطبيب مؤكدا:
- يمكن واضحة من ناحية الأدلة الجنائية حضرتك..لكن من ناحية الأدلة الطبية والنفسية.. فدي سبهالي أنا.. وبعدين أربعين يوم يا دوب فترة كافية للملاحظة وكتابة تقرير ممكن أنه ينقذ روح من

الموت.. ولا إيه يا فندم؟!..

أكد الضابط في حرج:

- أه أكيد.. مفيش شك أن الغرض في النهاية هو تحقيق العدالة..

هتف الطبيب مبتسما:

- أكيد يا فندم..

استأذن الضابط راحلا ليتطلع الطبيب لمريضته الجديدة محاولا تذكر الاسم العجيب الذي تحمل.. شامة عواد محروس التايب..

*****

طرقات على باب مكتبه ليطل من خلف الباب أحد الضباط الأصغر رتبة والذي يتابع معه القضية التي توقفت تماما بعد أن تم إيداع المتهمة مستشفى الأمراض النفسية والعصبية في انتظار تقرير عن حالتها العقلية وقت ارتكاب الجريمة..

أمره ضابط المباحث في أريحية:

- تعال ادخل واقفل الباب وراك..

دخل الضابط الأصغر رتبة هاتفا في جدية:

- أوامرك يا فندم.. ايه فيه أخبار جديدة؟!.

أكد الضابط الذي يتولي التحقيق في القضية:

- لا مفيش.. بس رغم كل الدلائل اللي لقيناها ضد المتهمة إلا أننا لحد دلوقت منعرفش فين سلاح الجريمة..

هتف الضابط الأصغر رتبة:

- يا فندم واحنا يهمنا ايه؟!.. المهم أن الجريمة لبساها.. دم القتيل كان على هدومها.. وعندها دافع قوي لمقتل أختها على يد القتيل..
هتف الضابط الموكل بالقضية:
- لا.. أنا مش هرتاح إلا لما اعرف ودت فين سلاح الجريمة. ده انا طلعت كذا حملة تمشيط.. وقلبنا العشة بتاعتها فوقاني تحتاني.. ولا لقينا حاجة.. طبعا والمحامي بتاعها ما صدق اترمت ع الأرض راح قايلك مريضة نفسية وغير واعية ومدانيش فرصة اخد وأدي معاها اعرف أي حاجة.. وأدينا مستنيين التقرير.. واللي انا متأكد انه هيقول إنها زي الفل.. وأعقل مني ومنك..
واستطرد في حماس أمرا:
- راجع معايا الأحداث كده.. الأول جالنا إخطار بالكف اللي لقيوها من جثة عسران.. بعدها أجزاء تانية.. وعملنا تمشيط ولقينا بقية الأجزاء ومفيش قاتل أو حتى مشتبه فيه.. شوية وإخطار عن جثة بنت مشوهة كانت مدفونة والديابة نبشت قبرها وطلعتها وبرضو مفيش قاتل.. بس الشكوك كانت بتحوم حوالين عسران اللي كان معروف أنه عايش دور الدون جوان وأكيد البت عجبته ولما خد منها غرضه خاف تفضحه فسمها وبعدين حرق جتتها زي ما تقرير الطبيب الشرعي أكد عند تشريح الجثة.. واللي أكد إنها ميتة ومدفونة من فترة بسيطة قبل موت عسران..
هتف الضابط الأصغر رتبة:

- تمام كده..

ليستطرد المحقق:

- وإحنا بنحقق مع كل الشهود والمشتبه فيهم لقيت الدم على جلبية المتهمة.. العجيب أن البت دي كذا مرة اروح ناحية العشة بتاعتها والعمدة كان يقولي دي غلبانة.. دي مش لاقية تاكل العيش الحاف، ويوم ما اكتشفنا بقية جثة عسران نزلت أكلمها كانت أمها لسه ميتة والغريب إن العمدة نفسه مكنش عارف انها ماتت وقالت إن..

انتفض الضابط باحثا عن اوراق القضية في لهفة يتطلع له الضابط الآخر في تعجب هاتفا:

- خير يا فندم..أيه؟!.. شكل حضرتك وصلت لحاجة؟!..

فتح الضابط ملف القضية وبدأ في البحث عن بعض المعلومات ليتأكد أن يوم الإبلاغ عن وجود كف القتيل هو نفس اليوم الذي أخبرته فيه عن موت أمها.. أين قبر أمها ذاك؟!.. بل أين تصريح الدفن من الأساس؟!..

انتفض المحقق من موضعه أمرا الضابط الأصغر في عجالة:

- قوم بسرعة..قوم هننزل النجع..

هتف الضابط الأصغر:- دلوقت يا فندم؟!..

أكد المحقق منتشيا:

- أه حالا.. أصل انا لقيت أداة الجريمة.. الفاس اللي مات بيه عسران.. أنا عرفت هو فين..

اندفع المحقق في حماسة خارج مكتبه يتبعه زميله لا يعلم أين يمكن لرئيسه إيجاد أداة الجريمة التي بحث عنها طويلا ولم يفلح في العثور عليها؟!.

*****

كانت ما تزل على حالها.. تجلس تضم أمها المتوفاه لصدرها تهددها كما طفلتها.. لا تعرف كم مر عليها وهي على هذه الحالة.. تستشعر أن عقلها يغيب عن وعيه لبرهة أو ربما لساعة ليعود فيجد نفسه على مثل تلك الحال من جديد.. قررت أخيرًا أن تطلق سراح أمها أو بالأحرى جثمانها ليتمدد على تلك المرتبة المهترئة الموضوعة أرضا لتحضرها لدفنها.. تطلعت لتلك الفأس التي كانت تحملها.. أداة جريمتها التي ارتكبتها منذ ساعة أو ربما أكثر.. هي لا تدري.. فمقاييس الزمن اختلَّت لديها.. تناولتها وخرجت وبأقرب منطقة قابلة للحفر بدأت تحفر قبرا يواري جثمان أمها الراحلة.. أخذت تضرب الأرض في عزم أقوى الرجال.. لا تعلم من أين واتتها القوة أو القدرة على حفر قبر ليضم لحد أمها.. حفرت وحفرت حتى انتهت لعمق كافٍ واتساع مناسب لجسد غاليتها.. تركت الفأس جانبا وعادت لتضع بعضًا من ماء على كانون بأحد جوانب العشة حتى إذا ما بدأ في الغليان أعدت جسد أمها لغسله الأخير..

لم تبك أو تنتحب.. لم تذرف دمعة واحدة.. كانت تغسل جسد أمها وكأنما هذا هو المعتاد لديها.. هل مات قلبها أم ماتت مشاعرها.. أم

توقفت أعينها عن ذرف الدموع؟!.. هي لا تعرف السبب.. فقط هي لم تبك.. كفنت أمها بأحد الأثواب النظيفة لأختها الراحلة.. وأخيرا أحضرت جريدتان من نخل وضعتهما قبالة بعضهما وبدأت في تحريك الجسد بلطف حتى استقر عليهما لتبدأ في جذب رأس الجريدتين معا ساحبة جثمان أمها حتى مثواه الأخير.

جاهدت على قدر استطاعتها إنزال الجسد بكل رَوِيَّة في محاولة للحفاظ على قدسية اللحظة ورهبتها.. تنفست الصعداء وتنهدت في راحة وتعب ما أن استقر جسد الراحلة بموضعه داخل القبر.. بدأت في إهالة التراب على الجسد رويدا رويدا كأنما تستبق ذكرى تلك اللحظات عالقة بذهنها.. تذكرت الفأس فتركته بداخل القبر وقد أيقنت أن ما من موضع أكثر أمنا من جوار أمها لتستودع أداة جريمتها لتحفظها بعيدًا عن أيدي الشرطة..

بدأت في دفع الثرى نحو الحفرة لردمها بكفيها العاريتين.. وما أن انتهت حتى كان الصباح قد بدأ في التنفس بالأفق البعيد جاذبًا خيوط الليل ليخفيها تحت عباءته البيضاء..

تحركت نحو العشة لتتجه نحو فراش أمها لتتمدد عليه في إنهاك تضم غطائها الصوفي البالي حول جسدها لعله يشعرها بأمان زائف لم تختبر مذاقه يوما.. داعب النعاس جفونها لتستجيب في طاعة عمياء سائرة في طريقه طارحة كل ما حدث خلف ظهرها لتنام قريرة العين..

*****

هتافات من هنا، وصرخات من هناك، وهي كالأصم الذي لا يسمع ما يدور حوله ولا يعي لغة الإشارة، أو حتى بقادر على قراءة حركات الشفاه الثائرة والمحملة بالقهر والوجع داخل قاعة المحكمة التي ساقوها إليها ليلقوا بها داخل ذاك القفص كأنها حيوان مفترس يمكن أن ينقض على الجميع ملتهما إياهم في لحظة..

هي المجرمة.. القاتلة.. وهم.. من هم.. من هؤلاء الجالسون هناك على تلك المقاعد المتراصة؟!.. وماذا ينتظرون؟!..

ظهر محاميها الذي رأته سابقا مرة أو ربما اثنتين.. لا تذكر متى.. هي تذكر فقط أنها رأت ذاك الوجه من بين الكثير من الوجوه التي تزدحم بها الذاكرة فتظهر وتختفي من بين غياهب المخيلة العليلة منذ فترة ليست بالقصيرة..

نهض المحامي وهتف بالكثير من الكلمات مشيرا إليها وهي لا تعي ماذا يقول ولما يقحمها في أمر لا تعرف عنه شيئا.. كانت تريد أن تخبره أن يصمت قليلا حتى تستعيد بعضًا من هدوء فكرها الصاخب بلا صخب..

انتهت الجلسة بتأجيل القضية وإعادتها للمشفى من جديد ليتلقفها أحد ما أسلمت له قيادتها بلا قيد أو شرط ليصطحبها لخارج المحكمة دافعا بها داخل عربة الترحيلات لتجلس على أحد المقاعد ملتصقة بتلك النافذة ذات القضبان الحديدية متطلعة منها للخارج حيث ذاك العالم الفضفاض الذي لم تخرج له يوما أو تعلم عنه إلا

القليل من قصص وحكايا من خرجوا إليه وأخبروها أنه عالم واسع قد يقتل أمثالها.. ابتسمت في سخرية.. على أساس أن عالمها ذاك العالم الضيق الخانق يحن على أمثالها ويسقيهم الشهد المصفى؟!..

ارتجت العربة قليلا عندما ضغط قائدها على المكابح بغتة لتهتز موضعها متعلقة بقضبان النافذة المربعة لتُعاود النظر للعالم الخارجي من جديد.. سقط ناظرها على عاشقين يمسك أحدهما بكف الآخر في تشبث.. نظرات كل منهما للآخر تحمل أهازيج من عشق وتباريح غرام وكذا دموع شوق تترقرق بالمآقي لا يمكن إغفالها..

تنهدت موضعها ودمعت عيناها بالمقابل وهي تتذكر أن أول لمحة عشق طالعتها بناظره كانت ليلة مقتله.. لمَ فعلت هذا؟!.. لمَ قتلته وحرمت نفسها من رؤية تلك النظرة من جديد؟!.. إن نظرة رجل عاشق لامرأة متيمة حد الهوس لا يمكن أن يعادلها شيء بهذا الكون مهما غَلَتْ قيمته..

فاضت روح الدموع التي صلبت على وجنتيها وبدأت تشدو بصوتها المتحشرج وبنيرة شجية تحمل فدادين من الحسرة:

هو صحيح الهوى غلاب ما عرفش انا..

والهجر جالوا مرار وعذاب واليوم بسنة..

جاني الهوى من غير مواعيد..

وكل مادا حلاوته تزيد..

ما أحسبش يوم ح ياخذني بعيد

يمني جلبي بالأفراح.. وارجع وجلبي كله جراح..
إزاي يا تري؟.. أهو ده اللي جرى!.

ظلت تردد التساؤل الأخير بنيرة متحسرة حتى أودعوها من جديد ذاك العنبر البارد لتستلقي على فراشها، وصورة العاشقين لا تُفارق مخيلتها..

*****

كانت الصُّدفة هي التي حولتها من مجرد مشتبه بها تحوم حوله الشكوك لمقام المتهمة الأولى والتي تملك الدوافع الكافية لقتل عسران ـــ قَتَلِه أختها ـــ بجانب قطرات دمه التي وُجدت على ردائها والتي أكد الطب الشرعي أنها دماء القتيل..

فلولا تمزق عباءتها السوداء وإصرار ضابط النقطة على مثولها أمام ضابط المباحث دونها ما اكتشف الأخير قطرات الدماء على جلبابها، ولَمَرَّ الأمر بلا منغصات.. وخاصة أن لا شئ يدينها..

تطلعت حولها بعد أن أودعوها ذاك العنبر.. يقال إنه عنبر المسجونين الخطرين.. عنبر ٨ غرب..

جالت بناظريها في اضطراب وهي ترنو إلى زميلاتها.. رفيقات الرحلة.. فكل واحدة منهن تملك حكاية قادتها الي هنا.. إلى مفترق الطريق.. حيث حياة لا تشبه الحياة، هي أقرب إلى العدم.. أو موت محقق لا رجعة فيه.. درب لا سبيل للعودة منه يصل بهن لقبورهن..

تمددت على فراشها، وضمت جسدها بشكل جنيني تحتضن ركبتيها لصدرها تحاول البحث عن شعور ما.. شعور تحتاجه اللحظة، لكنها لم تذق له طعما فلا تستطيع تمييزه.. كمن يشتهي طعامًا سمع أنه حلو المذاق يبعث على السعادة لكن لسانه لم يذق طعمه.. ولا تأكد من صدق هذا الإدعاء..

تذكرت أمها.. وتذكرت كيف كانت تشدو بصوت شجي باكٍ حينما كانت تضرب الوجيعة روحها كما الإعصار فبدأت في تقليدها تحاول التشبث بأهداب الإدراك الذي يتسلل من بين حنايا عقلها الواعي:

يا بياعين الصبر.. الصبر فين ألاجيه ؟!..
حبيبي سافر ما عاود.. دِلُّوني فين أراضيه ؟!..
لو يطلب العين ما تغلا..ده بالغالي أراضيه..
راح وساب الجرح ماكن.. في الجلب مين يداويه ؟!..

سال دمعها وشددت من ضم جسدها إليها في حميمية حتى جذبها النوم لدنياه..

*****

دفعت جليلة باب حجرة نومها في ثورة لينتفض العمدة هاتفا في حنق:

- چرى إيه يا ولية؟!.. هو أنت حد مسلطك عليا تجلجي منامي؟!..

هتفت به في حنق كأنها لم تسمع اعتراضاته من الأساس:

- جوم يا خويا.. جوم يا اللي عامل لي فيها عمدة النچع.. فز شوف ولدك راح فين؟!..

انتفض العمدة صارخا:

- يعني إيه راح فين؟!.. هو ولدك ده عيل، هجوم ادور عليه ولا أسرح حد ينادم عليه بطبلة وتار؟!.. ده راچل كد الدنيا..عريس..

واستطرد في مهادنة:

- وبعدين هو مش انتِ جولتيلي أن الأمور بجت تمام مع عروسته وانه ليلاتي عندها والدنيا فل.. يبجى إيه تاني؟!..

هتفت جليلة في قلق:

- ايوه كان كل حاچة عال.. لكن الواد بجاله ياچي يومين مچاش الدار.. أهاا..دي الليلة التالتة اللي يبيت فيها بره بعيد عن عروسته.. راح فين.. تجدر تجولي؟!.. ده يغيب كيف ما يغيب بس بيبات فالدار.. لاه.. بجولك إيه يابو عسران.. اني جلبي مش مطمن.

تنهد العمدة وهتف في محاولة لتهدئتها لتتركه لحال سبيله ينعم بنوم هانئ:

- لاه خير.. تلاجيه راح مع حد كده ولا كده وعچبته الجاعدة.. ولا نزل مصر ياخد له يومين..

هتفت جليلة بغير اقتناع:

- مصر أيه؟!..طب مش كان الأولى ياخد عروسته معاه؟!.. لاه.. أني ولدي ميروحش وياچي كده من غير ما يجول لأمه.. جلبي واكلني عليه.. جوم شوفه وريح بالي..

تنهد العمدة وقد أدرك أن عليه توديع النوم حتى يعود المحروس ولده،

ساعتها فقط يمكن أن يهنأ ببعض النعاس في هذه الدار الخربة..
نهض من موضعه متأففا دافعا جلباب النوم عن جسده مرتديا آخر مناسبا واضعا عباءته وعمامته متناولا عصاه، ليخرج من الغرفة بشكل عاصف، مغلقا الباب خلفه في عنف، تاركا إياها لامبالايةً لغضبته، تتلاعب بعقلها الظنون والهواجس.. ينهش القلق قلب الأم فيها على وحيدها الغائب..

*****

حيلة

دخل الطبيب المعالج حجرة شامة وخلفه عدد من الأطباء المرافقين له بعد أن توقفوا لبعض الوقت أمام عنبر ٨ غرب المودع به الحالات الخطرة من السجناء..

تطلع نحوهم في هدوء متسائلا:

- اكيد كلكم شوفتوا الحالة اللي قلت لكم عليها.. دي مطلوب أننا نعمل عنها تقرير طبي.. يا ينجدها من الإعدام ويجبها على هنا.. يا يسلمها لأيد عشماوي رأسا..

تطلع الأطباء لبعضهم في صدمة ليستطرد الطبيب مؤكدا:-

مجموعة المتابعة للحالة دي بقالها حوالي شهر بتراقب كل تحركاتها وتصرفاتها وردود أفعالها.. عشان لما نكتب التقرير يبقى كل كلمة فيه على بينة.. دي روح بني أدم بين أيديك.. كأنك داخل غرفة العمليات بالظبط والمريض متمدد قدامك متخدر ومسلم لك نفسه.. الطب النفسي المريض مش بيسلم لك جسده.. ده بيسلم لك روحه ومشاعره.. وأنت بتتعامل معاهم بمشرط الرحمة والتفهم..

هتف أحد الأطباء مستفسرا:

- حضرتك كتبت التقرير ولا لسه؟!..

أكد الطبيب المتابع للحالة:

- لا لسه أكيد..هي من حقها عشر أيام تاني متابعة.. بعدها نكتب التقرير عنها وأنا مطمن إني عملت الصح وكتبت اللي يمليه عليا شرف المهنة.

هتف طبيب آخر في فضول:

- طب هي طلعت مريضة فعلا ولا بتدعي المرض يا دكتور؟!..

ابتسم الطبيب مؤكدا:

- مش المفروض إني أقولك.. دي أسرار مرضى.. وأمور قانونية كمان هيترتب عليها أحكام قضائية فلازم تبقى طي الكتمان.. بس بعد كتابة التقدير وصدور الحكم النهائي بإذن الله.. لو كان لها نصيب ترجع على هنا هطلعكم عليه.. كنوع من أنواع التدريب..

ساد الصمت ليهتف الطبيب في رزانة:

- جولتنا خلصت النهاردة.. تقدروا تتفضلوا..

استأذن الجميع ليظل وحيدا بغرفته.. سار نحو مكتبه وجلس خلفه ليمد كفه نحو ملف معنون باسمها.. شامة.. تنهد في حيرة وفتحه وبدأ يقرأ الملاحظات المدونة به.. يراجعها ويفندها ويربطها بالعديد من المشاهدات فقد اقترب موعد المحاكمة وعليه الإنتهاء من التقرير عاجلا أم آجلا..

سرح بذهنه وبدأ في تدوين المزيد من الملاحظات على الأوراق قبالته ليمر الوقت دون أن يدرك لينهض متثائبا في إرهاق مغلقا ملفها مقررا

كتابة التقرير في وقت لاحق..

*****

صمت خيم على القاعة المكتظة ورغم هذا العدد الهائل من البشر المجموع في مكان واحد إلا أن الهدوء ساد لحظة أن ضرب الحاجب على المنصة هاتفا... محكمة..

تنبهت لمحاميها واقفًا بين الجموع وجلس ما أن بدأت الجلسة.. نهض ممثل النيابة منفعلا يهاجمها بضراوة لفعلتها النكراء.. لم تعتد الأمر كثيرا..

نهض محاميها يدافع عنها بكل ما أوتِي من قوة وبيان هاتفا مشيرا إليها:

- هذه الفتاة التي نشأت في بيئة تكره كل ما يمت للإناث بصلة وإنجاب الفتيات عار على كل رجل حر.. إذا بُشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم، فما بالك إذا ما رزق بزوج من الفتيات!؟..

لقد ترك عرضه وأعرض عنهن موليا ظهره لزوجه وبناته.. أنه..

طار خيالها حتى تلك العشة المتواضعة بأحضان الجبل في أطراف ذاك النجع القصي.. تخيلت كيف كان يوم ولادتهن هي وأختها الراحلة..

صرخات تعالت وتتابعت داخل تلك العشة البوص المتاخمة لذاك الجبل الشامخ هناك بذاك النجع الساكن بأحضانه.. صرخات امرأة تعاني آلام المخاض المتعسر..

كان يقف هو بالخارج ينتظر الفرج ما بين لحظة ونظيرتها لعله يلقى

الخبر الذي انتظره طوال تسعة أشهر.. لم يكن بالداخل مع زوجه إلا امرأة واحدة.. القابلة.. فلم يكن لديهم أقرباء.. فقط هي وهو.. وذاك المولود الذي يكافح اللحظة للخروج إلى العالم..

صرخات بكاء جعلته ينتفض من موضعه مبتهجا في انتظار البشرى السعيدة.. خرجت القابلة منكسة الرأس في خزي هامسة:

- مبروك ما چالك..

هتف في لهفة:

- هاا.. واد ولا بت!؟..

هتفت القابلة وهي تجمع حاجياتها وتضع عليها بردتها في سبيلها للخارج دون حتى انتظار مقابل خدماتها:

- چاك بتين.. يابو البنات..

تطلع الى حيث غابت القابلة لا يصدق ما نطقت به لتوها.. اندفع إلى حيث ترقد زوجه باكية بدورها لتقع عيناه على لفافتين من خرق بالية ترقد بداخلها أجساد بناته.. تقدم نحوهما يستطلع ملامحهما الصغيرة، وأخيرا رفع ناظريه نحو امرأته هاتفا يتهمها بجرم هي منه براء:

- چبتي بتين!؟.. كنت عايز واد يوجف بضهري تچبيلي بتين اجعد أربي فيهم للغايب لحد ما ياچي ياخد ع الچاهز..

هتفت زوجته باكية:

- وأني إيه بيدي!؟.. واد ولا بت.. عطية ربك.. هتسميهم ايه!؟..

نهض زوجها في عجالة هاتفا في حنق:

- البنات تسميهم أمهم.. ماليش صالح..

وخرج مندفعا لتضم بناتها لصدرها في حنو هامسة جوار أذن كل منهما باسمها.. شامة ويمامة..

أسماء بناته التي لم يعرفها حتى اليوم لأنه خرج ولم يعد.. رحل دون أن يعلم أحد موضع ذهابه كأنه نفض يديه من وجودهما على قيد الحياة من الأساس..

*****

دخل العمدة للدار منكس الرأس خائب الرجاء لتتلقفه زوجه جليلة في لهفة هاتفة:

- هااا..لجيت الواد؟!..

لم يرد بل جلس منهارًا على أحد المقاعد لتعاجله صارخة به:

- ما ترد يا راجل؟!.. الواد راح فين؟!. ولدك غايب ياچيله خمس ليالي دلوجت ومعرفينش طريجه فين؟!..

هتف العمدة في كدر:

- الغفر جلبوا الدنيا ومخلوش حد من اللي يعرفهم إلا وسألوا عنِه ولا حد وعيله من يوم فرحه.. هيكون راح فين بس؟!..

ساد الصمت لتقطعه جليلة في لهجة يحدوها الأمل:

- يكونش راح اتچوز البت اللي كان رايدها؟!.

تطلع لها زوجها لتستطرد معبرة عن لسان حال ولدها:

- جال اديني عملت اللي هم عايزينه اروح اشوف حالي واتچوز اللي جلبي رايدها؟!

هتف العمدة متأملا في صدق الإستنتاج:

- إيوه صح؟!.. وليه لاه؟!..كانت غائبة عنينا فين الفكرة دي؟!.. طب بس ياچي يجول.. خمس ليالي لا حس ولا خبر كده؟!..

هتفت جليلة في حسرة:

- الغلطة غلطتنا برضك.. إحنا كيف معرفناش مين البت دي اللي رايدها؟!.. كان حجنا نسأله.. كان زمانا عارفين هو فين بدل الدوخة السودا دي..

هتف العمدة:

- أه صدجتي..فاتت علينا كيف دي؟!.. كنا عايزينه يوافج ع الچوازة بأي طريجة والسلام، فراح عن بالنا البت دي تبجى مين ومن وين؟!..

يا رب بس يكون كده.. وهو معاها بعد ده كله..

هتفت به جليلة:

- لاه باينها كده.. بإذنه هتكون كده.. بس تلاجيه غرجان فالعسل مع عروسته الچديدة.. الجلب وما يهوى..

تنهد العمدة في إرهاق:

- يا ريت هو إحنا نكرهوا.. بس عارفة لما ياچي.. والله ما هفوتهاله..

هتفت جليلة وهي تربت على كتف العمدة في دلال هاتفة:

- بس ياچي بالسلامة ويعمل ما بداله يا عمدة.. ده الحيلة..

هتف العمدة وهو يتجه ليصعد الدرج في اتجاه غرفته لينل قسطا وافرًا من النوم بعد تلك المشقة التي لاقى في سبيل معرفة مكان اختفاء ولده ذاك الاختفاء الغامض..

*****

تنبهت لمحاميها الهمام وهو ما يزل يصارع الحقائق المثبتة بالأوراق حتى يثبت أنها لا تستحق عقوبة صارمة لأجل جرم ارتكبته من أجل الحب.. نعم الحب.. ذاك الزائر في غفلة من عقلك الواعي لتتنبه فجأة أن هناك ضيف على قلبك أنس البقاء دون أن يعطيك الفرصة للرفض.. وهل للضيف إلا كرم الوِفادة وحسن الضيافة؟!..

نعم لقد أحبته.. بل عشقته وأصبحت متيمة بكل ما يتعلق به.. لكن.. وأه من تلك الكلمة الاستدراكية التي ندرك تماما أن ما يتبعها لن يكون على هوى صاحبها.. أغمضت عينيها تسند جبينها على قضبان القفص الحديدي لاهية عن صرخات المحامي وإشاراته ليسبح ذهنها في عالم آخر..

كانت تسير مهرولة في طريقها نحو موضع تجمع عمال اليومية والتراحيل لتجده يهرول بدوره خلفها هاتفا في نبرة محببة لنفسها:

- ما تهدي يا بت على نفسك شوية وأُجفي كلميني زي الناس..

توقفت متطلعة نحوه ولم تفه بحرف ليستطرد متطلعا نحوها وعيناه تحمل بريقًا عجيبًا لم تبصره بهما يوما:

- مالك يا بت؟!.. واخدة فوشك كده.. مفيش كيفك ولا سلامات؟!.

ابتسمت لاتعرف بما تجيبه، فهي تعشق ذاك الرجل حد الهوس، وهو لا يدرك ما يفعله بقلبها المسكين عندما يتطلع إليها بهذا الشكل الذي يهدم بمعول من عشق كل جدران ثباتها..

هتف متعجبا لصمتها:

- إيه؟!.. مكنش ده حالك عشية؟!.. ده أنتِ مبطلتيش حديت..

تطلعت إليه متعجبة لبرهة ثم ابتسمت هامسة في حياء:

- معلش يا سي عسران.. كنت فرحانة إنك معاي..

هتف بها متلهفا:

- هشوفك النهاردة؟!..

هزت رأسها في إيجاب وتساءلت:

- بس فين؟!

تطلع إليها متعجبا:

- هيكون فين؟!..عند الساجية الجديمة مكان ما بنتجابل كل نوبة..

هتفت مبتسمة:

- طب تمام.. كنت فاكرة إنك هتغير المكان لحد يوعالنا هناك..

أكد هاتفا:

- لاه متجلجيش..اني عامل حسابي..

ابتسمت وهزت رأسها مندفعة بعيدا عنه ليتطلع هو خلفها حيث رحلت يُمني نفسه بصحبتها خلال الساعات القليلة القادمة..

بكت كما لم تبك من قبل حتى ظن كل من كان معها على ظهر تلك

الشاحنة في اتجاههم للعمل بأحد الحقول بنجع مجاور أن امها قد فارقت الحياة.. كان بكاءً مرًّا يعكس ما بروحها من وجيعة وما بقلبها من كسرة.. لقد خانتها أختها.. لا.. خانها هو.. بل خاناها معا.. كان يعلم أنها تعشقه ولكنه لم يتورع ليلقي بها بطول ذراعه من أجل أختها التي أدركت بالتأكيد أنه كان لها.. والتي تقربت منه تجرب حظها في الفوز بقلب ذاك الرجل الذي تتنافس عليه بنات النجع جميعهن.. كانت تعتقد أنها الفائزة حتى بدأ في الإبتعاد بل التجاهل ثم النفور.. الأن أدركت السبب وراء ذلك.. لقد وجد البديل.. وياله من بديل؟!.. صورة أخرى منها لكن أكثر إغواءً وأنوثة..

بكت من جديد حتى أن أدمعها سالت على غير العادة لتمد كفها تغتالها في قسوة وهي تتنهد مستمعة للمحامي يستجوب بعض الشهود..

كادت أن تهتف به ساخرة.. أي شهود يا هذا؟!. أنا الشاهدة الوحيدة على ما كان.. أنا الجانية والمجني عليها والجريمة نفسها إن شئت.. أنا السر والجواب.. الضحية والجلاد.. إنه أنا التي رأت بأم عينها وأنصتت بمجمل مسامعها..

أغمضت عينيها من جديد ليجذبها موج الماضي لعمق الذكري لتتذوق مرارتها من جديد..

دخلت تتمايل في غنج مترنمة بأغنية شهيرة كانت دلالة على مزاجها الرائق:

- يا حضرة العمدة إبنك حميدة ضربني باستفندية..اههي.

تطلعت نحو أختها في اضطراب مستشعرة ما يعتري توأمتها من تغيرات هاتفة في قلق:

- مالك يا بت مش على بعضك ليه كده!؟..

هتفت الأخرى معترضة في دلال:

- مالي!؟.. ما أني حلوة أهو..

هتفت هي في محاولة لسبر أغوار أختها:

- بجولك إيه يا بت!؟.. بلاها السكة اللي أنتِ سلكاها دي.. أخرتها واعرة يا بت ابوي..

قهقهت أختها مؤكدة:

- واعرة ع اللي زي حالاتك.. لكن أني.. والله ما هسيبه إلا جدام المأذون..

هتفت هي في غضب مكبوت حتى لا يصل لمسامع أمها:

- يا خيتي الطريج ده واعر.. ما في بت فالناحية كلها سلمت من راچل غني جعد يضحك على عجلها لچل ما ينول غرضه ويروح.. وإحنا غلابة وملناش راچل.. لمي روحك محناش كده.. الناس دي يجتلونا ولا لينا عنديهم دية..

قهقهت أختها من جديد:

- هجولهالك تاني.. أني مش اي بت.. أني مش عويلة.. وهچيبه لحدي..

هتفت في فضول:

- طب هو مين ده؟!.. جوليلي بس أعرف.. محدش هيصون سرك كدي..
قهقهت أختها في أريحية هاتفة:
- لاه..مش دلوجت.. بعدين هاتعرفي.. وهاتتبسطي جوي..
ونهضت في عجالة تتراقص في خطواتها تستشعر أن الكون خُلق لأجلها فقد كانت تتباهى دوما بجمالها الآخاذ الذي كان يدير رؤوس الرجال.. وعلى الرغم من كونها نسخة مستنسخة منها لكنها أبدا لم تكن بهذا التيه والكبر.. عجيبة هي توأمتها وكأنما كل منهما خلقت من طينة خلاف أختها رغم كونهما روح واحدة شقت لجسدين..
تنهدت في حسرة وتركتها تتطلع بمرآتها المكسورة الغائمة في خيلاء ملبية هي نداء أمها التي فقدت نظرها منذ سنوات لسبب غير معلوم.. وبُحَّ صوتها لكثرة البكاء والعويل فكانت في أحيان كثيرة لا تنادي إحداهما بل كانت تقرع بأحد الصحون النحاسية على حصوات صغيرة بالقرب من موضع جلوسها المعتاد لعل واحدة منهما تسمعها فتحضر لها بعضًا من ماء أو تساعدها على السير حتى موضع قضاء الحاجة..

*****

دخل الخفير صارخا في ذعر حقيقي هاتفا يستدعي العمدة:
- يا حضرة العمدة.. إلحج.. جتيل.. جتيل..
انتفض العمدة من على مائدة إفطاره وقد غص في لقيمة كان بالفعل

قد دفع بها لُتطحن تحت أسنانه هاما بابتلاعها لتقف بحلقه مع صريخ خفيره المذعور..

هتفت جليلة للخفير في حنق:

- چاك خابط.. هي دي اخبار تچبهالنا على غيار الريج يا بچم..

سكبت كوب من الماء ناولته للعمدة ليرتشف بعضه دفعة واحدة قبل أن يلتقط أنفاسه صارخا بدوره في خفيره:

- جتيل فين يا وش البوم يا چلاب المصايب؟!..

هتف الخفير شارحا:

- هو مش چتيل كامل يا عمدة.. دي يده بس.. لسه ملجيوش چتته كاملة.. اليمة الجبلية نواحي الچبل مجلوبة.. وحضرة الظابط بيسأل عليك..

هتف العمدة وهو يجذب عباءته واضعا إياها على كتفيه:

- استر يا رب..هم بينا يا واد نشوف إيه في؟!..

اندفع العمدة للخارج وخلفه خفيره لتتنهد جليلة في قلق لما يحدث حتى أنها ما نطقت حرفا إلا حينما طالعتها عروس ولدها باكية أعلى الدرج وهي في طريقها لغرفتها لتهتف بها صارخة في ضيق:

- بتبكي على إيه يا وش الشوم؟!.. والله من يوم ما هليتي علينا بطلتك الفجرية دي وإحنا ما شفنا خير؟!.. غوري من خلجتي.. بلاها نواح ع الصبح.. بوووه.. أما وش فجر صح.. ما الواد مطفش منِك من شوية..

اندفعت العروس الحزينة لداخل حجرتها باكية بينما تجاهلتها جليلة وهي تتجه نحو غرفتها لتنعم ببعض الراحة..

*****

هتف محاميها وهو ما يزل يُعدد في مساؤي عسران ابن عمدة نجعهم وكيف كان زير نساء لا يكتف من نهش الأعراض واستباحة الحرمات.. ابتسمت في شجن تكاد تهتف للمحامي.. أن عسران لم يكن فقط ما قلت بل كان خائنا من الدرجة الأولى.. لقد ظلت على جهلها بحقيقة علاقته لأختها حتى علمت بالصدفة البحتة يوم ناداها معتقدا أنها أختها مؤكدا أنه قابلها بالأمس وهذا لم يحدث.. وغموض توأمتها وتسترها على كونه ذاك الرجل الذي تواعد وكلماتها بأنها ستكون سعيدة عندما تعلم من هذا الرجل التي تحاول إيقاعه في حبائلها جعلها تدرك أنها سقطت في فخ غفلتها وشرك خيانتهما.. هي كانت تعلم أنه حبيبها وهو يدرك تماما أن من يواعدها ليس إلا توأمتها..

كلاهما تآمر عليها وتركاها تنعم بالجهل حتى غرقت بالمعرفة المريرة وأدركت في لحظة تنوير جاءت بمحض الصدفة أنهما عاشقان وهي المنبوذة من جحيم عشقه الذي ما عاد لها بهذا الكون حلمًا إلا الوصول إليه مهما كانت العقبات أو الحواجز..

لقد حاولت استعطافه.. حاولت استمالته بكل الطرق.. لكن لا فائدة.. لقد دنست الجسد الطاهر في سبيل نظرة ترى بها مجرد لمحة من عشق تشتهيه.. تنهدت وجال بصرها بالفراغ متذكرة من جديد ما

كان..

كانا بمكانهما المتفق عليه للقاء بين أعواد القصب في ذاك الغيط القريب من عشتهن.. جالسة على مقربة منه في استحياء ما دفعه ليهتف مستنكرا:

- مالك بعيدة كده؟!.. ما تجربي يا بت..هو أني هكلك..

هتفت في توجس:

- لاه.. اجرب ليه؟!.. كده زين..هو أنت مش كنت رايد تشوفني.. أديك شايفني اهاا..

أكد في نبرة ناعمة يستدر بها عطفها:

- يا بت عايزك جريبة من جلبي.. ده اني بحبك ورايدك بالحلال..

هتفت في سعادة:

- صح؟!..

هتف قاسما في حماسة:

- وراس ابويا اللي ما بحلف بيها كدب أبدا ما عايز غيرك يا بت..

همت بالاقتراب في سعادة لعله يُصدق وعده ويبر بقسمه، لكن طرف جلبابها انزاح عن بعض ساقها ليهتف هو بصوت أبح تكتنفه الرغبة العارمة متأثرا بظهور هذه الشامة السمراء على تلك القدم البضة:

- إيه الچمال ده؟!.. بجى مخبية عني الحلاوة دي كلها..

هم برفع طرف ثوبها من جديد ليتطلع لتلك الشامة التي فتنته فتمنعت هاتفة في إصرار:

- لاه.. لما أبجى حلالك الأول..

هتف وهو يقربها لصدره يداعب مشاعرها الساذجة بصوت أشد إغواءً من شيطان رجيم:

- انتِ حلالي.. من يوم ما جابلتك واني رايدك..

هتفت في تيه وقد بدأت تلين لوقع كلماته الساحرة على مسامعها:

- طب وأبوك العمدة هيرضى تتچوز واحدة زيي!؟.. ما أني مش كد المجام..

همس وهو يدنو منها حتى أصبحت بأحضانه مؤكدا:

- أبويا ميرفضليش طلب أبدا.. وبعدين هي مين دي اللي فچمالك وتنفع تبجى مرت واد العمدة غيرك!؟..

وبدأ في إكمال فنون إغوائه كذئب يقنع شاة بأن ترافقه لبلاد السلام حيث يعيش الذئب والحمل في وئام ويُنجبا أولادًا بلون الأحلام..

أخذ في الشدو بهمس كأنما يعزف على مزمار لساحر هندي يروض حيته:

أبو شامة وعلامة.. أبو طلة بسامة..

ما يخفاش عليا عليا.. ميخفاش عليا..

واستطرد هامسا وقد تأكد أنه انتصر في حربه مع عنادها وبدأ في اجتياح الأرض العصية ولم يبق إلا رفع بيارق النصر على أعلى قمة بها معلنا الإحتلال التام:

- لو كنتِ فين.. هعرف أجيبك يا أم شامة.. بحبك يا بت..

وسقطت المدينة بين براثن العدو وسلمته مفاتيح بواباتها بلا قيد أو شرط.. تنهدت للذكرى الدنيئة.. واحتقرت نفسها أكثر وأكثر.. كيف صدقت وعوده؟!.. كيف وهبت له أعز ما تملك.. بكل ما تملك من الأساس؟!.. لم تكن حقارتها تلك هي كل ما دفعها لقتله.. بكل ما زاد الأمر سوءًا هو استبدالها بهذه السهولة لا بامرأة أخرى أكثر مالا وجمالا بل بتوأمتها التي هي روحها مسكونة بجسد آخر.. يا له من حقير؟!.. ويا لها من حمقاء؟..

*****

طرقات قوية على باب عشتها الخشبي كادت أن تخلعه عن موضعه.. نهضت في تثاقل تضع على رأسها شالها الأسود لتبدو في هذا الزي الحالك أشبه بغراب نوح..

كان وجهها شاحبا على قسماته ترتسم أمارات الحزن الدفين.. فتحت الباب في هوادة متطلعة للخارج في حياء هاتفة:

- مين؟!..

هتف الضابط متطلعا لها في تمعن:

- السلام عليكم.. عايزين نسألك كام سؤال..اكيد انت سمعتي باللي بيحصل؟!..

هتفت في وهن:

- لاه..مسمعتش يا باشا.. بجالي تلات ليالي چوه العشة من ساعة ما أمي ماتت..

بدأت في البكاء بشكل تعجبت له هي شخصيا.. كيف لها أن تبكي اللحظة ولم تبك لحظة أن كانت بين ذراعيها أو حتى ساعة غسلها ودفنها؟!..

كيف استحضرت الدمع الغزير بهذا الشكل ليهتف بها الضابط متعاطفا:

- البقاء للّه!!..

ليبادرها العمدة متعجبا:

- البقاء للّه يا بتي.. حصل ميتا ده؟!.. محدش ليه عنِده خبر بموت أمك فالنچع؟!..

أكدت شامة باكية:

- أصحاب الخير والمعروف ساعدوني يا عمدة.. وبعدين هجول ليه؟!.. أمي كانت ميتة من زمن.. وأني كيف ما أنت واعي.. محلتيش تمن اللجمة، يعني لا هعمل عزا ولا فيه مكان للي هياجوا يعزوا.. ولا أمي كان حد عاددها من أهل النچع من أساسه..

تنهد العمدة مؤكدا من جديد:

- ربنا يرحمها ويتولاها.. أنتِ لو احتچتي حاچة يا بتي أبجي تعالي.. أني فمجام أبوكِ برضك..

هتف بكلماته الأخيرة بنظرات لا تعكس مطلقا نظرات أب تجاه ابنة.. نظرات شهوانية محملة بالكثير من الرغبة كما كانت لابنه من قبل..

هتف الضابط يحاول استيضاح بعض الأمور:

- انتِ ساكنة هنا.. يعني قريب من الجبل.. معقول مسمعتيش أي أصوات جاية من هناك؟!.. صرخات مذعورة.. أو حتى حد بيصرخ طالب المساعدة؟!.. أي صوت؟!.. ما هو مش معقول تكوني عايشة هنا ومسمعتيش ولا شوفتي أي حاجة؟!..

أكدت شامة:

- لاه يا بيه بنسمعوا.. بنسمع صوت الديابة بيعووا.. وضرب النار اللي چاي من جلب الچبل من مكان ما المطاريد جاعدين.. غير كده مسمعتش.. وأني لو سمعت هخبي عن الحكومة ليه يا باشا؟!..

تنهد الضابط مدركا أن ما من طائل في إضاعة وقته مع تلك البلهاء التي لن تمده بالمعلومات التي يبحث عنها، لذا سحب نفسه وعساكره مبتعدا، بينما وقف العمدة قبالة الباب الخشبي وهمس وهي تهم بغلقه بنفس النبرة الماجنة والنظرات الراغبة:

- مش محتاچ أجول لك إن الدار مفتوحة لكِ.. تاچي في أي وجت..

هزت رأسها في طاعة هامسة بنبرة أودعها استكانة زائفة مغايرة تماما لما يجول بخاطرها اللحظة:

- تسلم يا عمدة ويسلم سؤالك.. ربنا يعينك علينا..

ابتسم العمدة، ورحل لاحقا بالضابط الذي كان قد أطلق الكلاب البوليسية كوسيلة للبحث عن أي دليل بتلك البقعة يمكن أن يضيف للقضية خطوة في التقدم لحل اللغز...

*****

وقفت كعادتها أمام أحد النوافذ الطولية لذاك العنبر الذي أودعت به تتطلع ليد البستاني التي كانت تهذب بعض الأزهار النامية بحوض قريب من موضع وقوفها..

ابتسمت في بلاهة وسرح خاطرها المشوش في ذكري بعيدة طلت بمخيلتها من شرفة الحجب وبدأت في الغناء بصوت متحشرج وبأحرف مهتزة يخالطها الدمع المعلق بالأحداق هامسة:

أنا اللي ببيع ياسمين..

يا ترى مين هيضم الورد؟!..

تعالى جنبي وريحني..

ياللي كلامك يجرحني..

عشان بحبك.. تفضحني..

سال دمعها الذي كافح كثيرا متشبثا بالمقل وهي ترى بعين خيالها شجارها مع عسران بن العمدة (المعجباني) كما كان يطلق عليه الجميع.. يوم أن صرخت به متوسلة:

- متفضحنيش يا عسران.. هو أني عشان بحبك تعمل فيا كده؟!.. ده أني محدش هيحبك كدي..

هتف بها ساخرا:

- والله بنات النجع كلهم يتمنوا ينولوا الرضا وواد العمدة بس يجول رايد وأحسنها واحدة هتجول أمين.. أنتِ مين من أساسه؟!.. زيك زي غيرك.. رخيصة ملهاش تمن ولا ليها بدنة تچيب حجها.. لهو انتِ

كنتِ فاكرة إني عاشجك صح!؟..

قهقه ساخرا من جديد مستطردا:

- ده أنتِ وهمانة والظاهر كده إن عجلك خف..

هتفت تستوقفه عندما هم بالرحيل تستعطفه في نبرة منكسرة:

- طب هعمل إيه أني دلوجت.. واللي فبطني يا عسران!؟.. حرام عليك ولدك..

صمت للحظة مصدوما للخبر لكنه استدرك هاتفا في سخرية:

- بكفاياكِ.. لعبتك مفضوحة كيف صاحبتها..

ودفع كفها المتشبثة بذراعه بعيدا هاتفا في قرف:

- غوري شوفيلك حد غيري أرمي عليه بلاكِ.. جال ولدي جال..

رحل تاركا إياها غارقة في خِضَمّ عارها ومخافة افتضاح أمر حملها.. عادت لحاضرها وهي ما تزل تتطلع للزهور في وجه متلبد يبدو لمن يطالعه كلوحة عجيبة جمعت العديد من المشاعر المتناقضة دفعة واحدة.. لوحة رسمت بيد فنان مجنون استطاع بكل حرفية جمع كل هذا الفصام الشعوري معبرًا عنه بقسمات وجهها المتبدلة كفصول العام والتي جاءت جميعها لتظهر جلية في وجه واحد..

عادت لشدوها المتحشرج النبرة هامسة من جديد:

الصبر ياللي الهوى... ويَّاك مهوش معدول..

هتعمل إيه مركبك؟!... والريح مهيش معدول..

ما كنت خالص يا صاحبي.. إيه وجَّعك مع دول!؟.

*****

تنهدت وسال الدمع من جديد.. وهي تستمع لصوت محامي الخصم.. يتنازع لأمر ما لم يدركه عقلها المشوش الذي فاض بالكثير من الذكريات كسد انفرجت بواباته بعد فيضان من المشاعر وخاصة ومحامي الخصم يصف دناءتها وخستها وهي تحيك المؤامرات حتى توقع بابن العمدة طمعا في ماله وسلطانه..

ابتسمت ساخرة.. فلم يكن كل هذا ببالها حين عشقته وهو لم يدرك ذلك يوما.. كان يعتقد أنها مثل غيرها من بنات النجع يبحثن عن الثراء والسلطة لا أكثر.. كان أعمى البصر والبصيرة حتى أنه لم يع كم تهواه رغما عن كل مساوئه وهفواته..

ولأجل هذا كله كان لابد لها أن تنتقم.. نعم.. تثأر لقلبها الجريح وشرفها المهدور..

فقررت أن تنال حقها كاملا من كل من ظلمها.. وقد كان..

وقفت خلف أحد أشجار الصفصاف الوارفة بذاك الطريق الذي تدرك جيدا أنها طريق ذهابه وآيابه.. ظلت على حالها متسمرة خلف جذع الشجرة الضخم متخفية عن الأعين المتلصصة حتى أبصرته قادمًا يتبختر في تيه وكأنما حِيذَت له الدنيا.. هتفت باسمه تستدعيه لينضم إليها حيث تقف بالخفاء.. ظل لبرهة لا يعي من أين يأتيه صوت تلك التي تناديه حتى تنبه لموضعها فاندفع نحوها في قلق فليس من عاداتها انتظاره بالطرقات بمثل هذا الشكل.. هتف متوترا ما أن انضم إليها:

- إيه فيه؟!.. مش بعادة مجيتك..

هتفت به في قلق مماثل:

- أختي عرفت كل حاچة.. وكل ما تشوفني داخلة ولا خارچة تبجى فاكرة إني رايحة أجابلك..

هتف عسران في تفكير:

- طب وبعدين؟!.. إيه العمل؟!.. دي مش هتسيبنا فحالنا..

هتفت به:

- اومال أني چاية لك ليه!؟.. لچل ما نفكر نعملوا ايه؟!.. بص خلينا نتجابل ونشوف ممكن نحلها كيف الحكاية المعجربة دي.. أهو يكون كل واحد فينا شافله حل..

هتف محبذا الفكرة:

- تمام نتجابل في مكانا..

هتفت معترضة:

- لااه..بلاها مكانا.. خليها فالغيط اللي جريب من العشة عشان مش هجدر أخرچ تاني وأبعد.. عارفة إنك مبتحبش المكان ده.. بس معلش.. عشان خاطري..

هز رأسه موافقا على مضض ليفترقا على وعد باللقاء ليلا حيثما اتفقا..

كانت هي من قابلته لا أختها.. كانت تدفعه ليحضر لمكان مقابلتهما القديم.. كانت ترغب في جمعهما حيث كانت تختلي به لتستطيع أن

تستمع إلى ما قد يسرها في تخطيطه..

لا تعلم أي شيطان ذاك الذي احتل عقلها يومها... وكأنما أصبحت إبليس بذاته.. فقد عادت له بعد ساعة تحدثه في اضطراب هاتفة بلهجة تحذيرية:

- بجولك يا عسران.. خد بالك.. أختي هي اللي هتاچيك بين الجصب.. مش أني.. هتعمل إنها أني.. خد بالك..

هتف بها في حنق:

- چياني أعمل بيها إيه دي؟!.. طب أني هتصرف معاها.. مبجيش ينفع معاها الحسنى..

هتفت به تدعي العجلة من أمرها:

- إعمل معاها ما بدالك.. أني چيت أجول لك عشان تبجى على نور.. مع السلامة..

عادت بعد أن نفذت ما كنت تصبو إليه وكانت قد زارت الغجرية العجوز قبلها لتحضر ذاك السحر الذي سيجعله لا يرى امرأة سواها..

عادت لتجد أختها تقف أمام مرآتها تتجمل كعادتها في انتظار موعده الذي أرسلت طفلا ليخبرها به حتى لا تكون بالصورة..

هتفت بها في محاولة لنصحها من جديد أو هكذا أدعت مظهرة أنها لم تكتشف هوية ذاك الرجل الذي تقابله:

- برضك رايحة تجابليه؟!.. يا بتي إبعدي عن الشر وغني له؟!..

هتفت بها في صدمة:

- شر!؟.. بجي الغنى شر؟!.. أمال مين يبجى الخير يا خايبة!؟..
هتفت بها في هوادة محاولة استمالتها تكرر كلاما أسمعوها إياه عدة مرات:

- يا بتي الراچل باصص على چمالك وبعد ما ينول غرضه مش هيعبرك بطرف عينه حتى.. إستهدي بالله وإبعدي عنيه الراچل ده.. أني جلبي عليكِ.. ده تِعبان هيفضل يتمسكن لحد ما يتمكن..

هتفت بها أختها في فخر:

- ليه!؟ لهو كل الطير اللي يتاكل لحمه.. والله مبجاش أختك اللي لما تحط حاچة براسها تعملها إلا لو خليته يحفى ورايا ويشتهي نظرة الرضا وميطلهاش..

وتطلعت لأختها مستطردة بنبرة خبيرة بصنوف الرجال وألاعيبهم:

- اللي زي الراچل ده ميهواش إلا البت اللي توديه البحر وترچعه عطشان.. مش البت اللي تغرج بكلمتين من الأسطوانة المشروخة اللي دار بيها على كل واحدة شوية..

هتفت بها في انهزام:

- أني خايفة عليكِ.. خلينا بعاد عن الناس دي أحسن..

انفجرت توأمتها ضاحكة وهتفت في سخرية:

- خليكِ انتِ چنب الحيط وسيبيني اني اصرف دنيتي مع الراچل ده واني يا هو..

لم تكن تعلم أنه يوم أن قالت كلماتها تلك كانت قد اختارت بالفعل،

فقد استوقفتها أختها للحظة قبل أن تهم بالخروج لملاقاته وغابت لبرهة ثم عادت حاملة منديلاً به بعض من طعام حصلت عليه بشق الأنفس خصيصا من أجل هذه المناسبة.. ناولته أختها التي أمسكت بالمنديل متعجبة هاتفة في استفسار:

- إيه ده؟!..

أكدت هي:

- ده أكل.. مينفعش تروحي ويدك فاضية.. وكليه منِه.. وأوعاكِ تسيبيه أمسكي فيه بيدك وسنانك.. أهو واحدة منينا تبجى الكسبانة والخير يعم ع الكل.. وينوب أختك م الحب چانب..

قهقهت اختها هاتفة وهي تندفع لخارج العشة:

- ربنا يسهل ويحصل المراد من رب العباد.. جولي يارب..

هتفت هي خلفها مدعية السعادة:

- يارب يحصل عن جريب.. هيروح منك فين؟!..

علت ضحكات أختها من جديد وهي تبتعد، تاركة إياها في ترقب منتظرة الخروج خلفها لترى بعينيها ما قد يحدث..

*****

محاكمة

صرخات وصرخات تعالت متعاقبة من حنجرة امرأة مكلومة.. امرأة فقدت عزيزا ولا قدرة لها على الإفصاح عن مدى وجيعتها وعظم مصابها إلا بتلك الصرخات الصادرة من حنجرة جليلة والتي شقت عنان السماء.. كانت تطلقها وهي تقفز في عدم تصديق كمن يقف على جمرات من نيران مستعرة هاتفة في وجيعة فاقت حد التحمل:

- لااه..مش ولدي.. لااه..عسران مراحش.. عسران مع عروسته.. ليه بتعملوا فيا كده.. هاتولي ولدي..

أمسكت بتلابيب زوجها الذي لم يكن بأي حال في وضع أفضل منها.. فقد كان يبكي في حرقة لفقد ولده الوحيد.. كانت تهزه في عنف صارخة به:

- مش انت العمدة.. چيبلي ولدي.. أني عايزة عسران يا عمدة.. وااه يا جلب أمك يا حبيبي..

سقط العمدة جالسا في انهيار يضع رأسه بين كفيه هاتفا في حسرة:

- عليه العوض ومنه العوض.. عليه العوض ومنه العوض.. خلاص الواد راح يا چليلة.. ولدك جتلوه.. دول دبحوه وجطعوا جتته ورموها لديابة الچبل ينهشوها..

هتفت جليلة صارخة:

- اااااه..يا حرجة الجلب عليك يا عسران!..

لم تكمل كلماتها إلا وسقطت موضعها لينتفض العمدة في اتجاهها مدركا أنها لن تنهض معافاة من جديد بعد هذه الصدمة القاصمة لظهريهما وخصوصا هي.. فما كان عسران إلا قرة عينيها ومخزن أحلامها ومستودعًا لكل رغباتها.. كان لها كل ما كانت تصبو إليه.. لكنه ذهب بغير رجعة..

صدق حدسه عندما حضر الطبيب مؤكدا أنها فقدت القدرة على النطق والحركة.. ففقدها لولدها جعلها تدرك أن ما من مُصاب أكثر وجعا من فقد جزء غال من روحك.. وكان عسران هو الروح ومكمنها.. المستوطن بحشاها.. المسبب لكل هناء وفرح.. فماذا لها بعد أن غادرتها روحها؟!..

*****

كان محاميها يصول ويجول في حماسة هاتفا:

- من قتل يقتل ولو بعد حين.. كان ذاك العسران يتربص بأختها المسكينة يحاول النيل من شرفها معتقدا أنها من أجل فقرها يمكن أن تبيع الغالي بثمن بخس..

كادت أن تنفجر ضاحكة لما يقول.. أختها أبدا لم تكن لتبيع شرفها على أي حال.. ليس من أجل قيمة الشرف في حد ذاتها بل من أجل أنها تدرك تماما أنه كلما تمسكت بشرفها كلما كان ذاك حافزا أكبر

لعسران ليظل يتبعها حتى ينال ما يرغب.. كانت تتعامل معه بمبدأ الجزرة الموضوعة تتأرجح أمام أعين الجحش.. ذاك الأسلوب الذي يصلح كثيرا مع من هم على شاكلته من الرجال.. وهو نفسه الأسلوب الذي لم تستطع لسذاجتها استعماله لجعله معلق الفؤاد مفتونا بها..
أسندت رأسها للخلف على ذاك الجدار البارد خلفها داخل محبسها متذكرة العنبر وذاك الحريق التي أعاد لها تلك الذكرى التي مُسحت من مخيلتها لفترة كانت بها كالتائه حرفيا.

*****

كانت بالعنبر تتجاهل كعادتها تلك الأصوات الصارخة التي كانت تأتيها من حين لآخر لتكسر حاجز العزلة الذي فرضته على روحها منذ وطأت قدماها ذاك العنبر البارد الموصوم بالعار لخطورة قاطنيه.. كانت جدارنه أشبه بعقلها في أحيان كثيرة.. كانت عالمًا ناصع البياض يحاوطها من كل جانب.. تتخلله بعض التناقضات عندما يظهر على طولها بعض النوافذ ذات القضبان الحديدية متناثرة هنا أو هناك.. خلاف ذلك.. هي باردة بيضاء كجليد روحها المتصلبة أحيانا والمستكينة تارة.. والثائرة تارة أخرى..

عادت الصرخات تعلو من جديد:

- حريقة.. حريقة..

استشعرت هرجًا ومرجًا غير اعتيادي في مثل هذه الساعة.. وبداخل هذا المشفى الذي قد يرحل أحد قاطنيه دون أن يدري مخلوق..

رحل والسلام.. دخل جثة متحركة بروح تحتضر وخرج جثة محمولة منزوعة الروح.. ولا فارق.. كلاهما سيان..

العجيب فينا نحن البشر أننا نعتقد أن الموت لا يأتي إلا مرة واحدة.. لا ندرك أن هناك أرواح اُنتزعت من أجسادها على دفعات.. زارها الموت مرارًا مع كل وجيعة خذلان.. انكسار أمل.. طعنة خيانة أو مرارة فقد..

فهنيئًا لمن كان لهم وافر الحظ في زيارة الموت دفعة واحدة.. أما من ماتوا قبل أوانهم بأوان.. وزارهم الموت بالتقسيط المريح ليدفع كل منهم بعضًا من روحه في كل مرة.. فلا عزاء لهم..

نهضت من سريرها المعدني الذي أصدر صريرا خفيفا متوجعا لحركتها المفاجئة دون سابق إنذار متجهة نحو النافذة القريبة تتطلع لألسنة اللهب التي تعلو بتلك البناية القريبة لتتشبث أكفها بقضبان النافذة تضمها في تصلب أظهر سلاميات أصابعها النحيلة وبدأت في الصراخ بدورها تكاد تقتلع قضبان النافذة من موضعها..

لم يكن من أحد هناك ليتنبه لهياجها فقد كان العنبر كله في حالة هياج كامل والكل ملهي في ذاك الحريق الذي استطالت أذرع لهيبه ملتهمة البناية بكاملها..

سقطت أرضا وبدأت في التشنج وشياطين تخيلاتها تلهو بها وتتقافز أمام ناظريها تثير جنونها بشكل خطر.. كانت تجلس بين أعواد القصب تتطلع للمعركة الحامية الوطيس بين أختها وعسران..

لم تكن معركة بالمعني المتعارف عليه من صراع وجذب وشد..بل كانت معركة دهاء وحنكة.. تظاهر هو أنه لم يدرك حقيقتها وتوددت هي بطبيعتها ولم تشك بالأمر حتى قدمت له الطعام وقدم لها الحلوى التي كان يعرف أنها تعشقها.. وكانت توأمتها تفضلها بالمثل..

تناولتها في حسن نية لكنه لم يمس الطعام حتى اللحظة..

مر القليل حتى بدأت تتلوى في ألم.. ماذا وضع لها بالطعام يا ترى؟!..

لم يكن من الصعب عليها اكتشاف السبب الذي جعلها تتوجع بهذا الشكل.. لقد كانت الحلوى مسمومة.. وضع لها السم حتى يتخلص منها.. لم يكن يدرك أنه يتخلص من غريمتها وخائنتها وبعض روحها..

لكن لِمَ لَمْ تبك؟!..لمَ لم تحرك ساكنا دفاعا عنها أو العمل على إسعافها بأية طريقة؟!..

لقد وضع السم لأختها بالحلوى تناولتها بينما وضع لها هي السم بحلوى الكلام ومعسوله.. أختها تتلوى وجعا تموت الآن، بينما تألمت هي كثيرا ومازالت.. ذاق قلبها القهر والعلقم أحفانا من كفيهما..

هل كان يكرهها لهذه الدرجة حتى يفكر في التخلص منها بهذه الطريقة؟!.. بعد كل هذا العشق الذي غمرته به؟!.. بعد أن أعطت كل ما تملك حتى روحها التي أصبحت ملكا له.. أيفعل بها كل هذا؟!..

حتى أنه لم يكتف بأن وضع السم لأختها معتقدا أنها هي بل اقترب مضرما النيران بالجسد الساكن..

الآن ترتسم أمام ناظريها جثتها.. أو بالأصح جثة أختها وقد اشتعلت بها النيران وما كانت قادرة على الصراخ أو الإستغاثة.. ولما تفعل من الأساس؟!. هي من مات.. وهل يستجد الميت محاولا النجاة من براثن قابض الأرواح؟!..

كانت جثة هامدة بالفعل عندما بدأ عسران في إشعال النيران بها لتحترق أمام ناظريها.. لا تعلم ما الحكمة في حرق جثة أختها.. أما كان يكفيه أنها رحلت والسلام؟!..

كان يجلس في هدوء عجيب يتطلع لجسد أختها الذي تأكله النيران في جوع يتناول بدوره ذاك الطعام الذي كانت قد أحضرته له مستقطعة إياه من قوتهن بشهية عجيبة وكان ذلك ما يهمها في الأساس.. أن تتأكد أنه نال حتى ولو قضمة واحدة منه بأي طريقة.. ولحسن الحظ قد فعل!..

كان يجلس في أريحية متطلعا لألسنة النيران يعلم أن ما من أحد سيُلقي بالاً لذاك الحريق المشتعل بالقرب من الجبل في هذه المنطقة المُتطرفة خلف عشتهن.. حتى وإن تنبه أحدهم فهو بقادر تماما على صرف انتباهه بعيدا..

أخذت تتشنج مرة بعد أخرى حتى استكانت أخيرًا ما أن استكان - بمخيلتها - جثمان أختها عن الانتفاض مسلمة الروح أمام ناظري عسران الذي كان يرمقها بنظرة لامبالاية..

هدأت الصرخات.. فلابد أنهم استطاعوا بالخارج السيطرة على

الحريق أخيرًا.. لكن من لها ليُخمد ذاك الحريق الأبدي المستعر حَطَبه بحشاها.. والذي طال سعير لَهَبه روحها المحتضرة من الأساس!؟..

*****

عادت لأرض واقعها داخل ذاك القفص تضع كفها على بطنها حيث ذاك الألم الذي يعاودها كل فترة.. انقباض عجيب بأسفل بطنها يشعرها بأن شيئا ما بداخلها يتمنى لو ينزع أحشائها ليخرج للنور صارخًا.. إحساس غريب ينتابها أن وحشًا هناك ينمو ليفاجئها بالظهور بغتة ليلتهما حية..

شعرت بالغثيان.. ذاك الشعور نفسه الذي انتابها بالعنبر منذ أيام أو ربما أسابيع لا تعرف كم عددها.. وتذكرت ما حدث يومها بذهن مشوش..

كانت تتمدد على فراشها مستكينة بشكل عجيب لا يعلم أحدهم أنها تتمزق من الداخل في صمت.. تئن روحها لهذا الوجع الذي يتنازعها في استسلام تام وكأنها راغبة في الخلاص منه للموت حتى ترتاح قليلا من عذابات نفسها التي تلاحقها كظلها بل ترافقها كأنفاسها.. وضعت كفها فوق بطنها وتلوت من الألم الذي يقطع أحشائها بمشرط ثالم.. ندت عنها أهة مكتومة لم يلتفت إليها أحدٌ.. لكنها فجأة شعرت بشئ لزج يتسرب منها ليغرق موضعها على الفراش..

هل هو الموت!؟.. لمَ إذن هو مؤلم لهذه الدرجة!؟.. لقد كانوا دوما ما يقولون إن الموت راحة.. أية راحة فيما تعانيه اللحظة!؟..

رفعت كفها قبالة ناظريها لتجد باطنه يغرقه لون أحمر قانٍ.. ماذا يحدث لها!؟.. لم يكن هذا اللون بجديد على ناظريها فقد ألفته إلى الحد الذي أصبح يصبغ كل ما تقع عليه عينيها.. تلونت دنياها بحرارة وهجه وأضحى رفيق مخيلتها.. تستشعر حميمة عجيبة وامتزاج غريب مع ذاك اللون الذي أصبح اعتياديا حتى أنه ما عاد يثير لا رهبتها ولا تعجبها..

تجاهلت كل تساؤلات عقلها المشوش بخيالات لم تعد تدرك إن كانت وهما يختلقه ذاك العقل المشتت أم حقيقة مرت بها وخبرتها وكذا تجاهلت لون الجريمة الأولى الذي يغرقها..

إلا أن صوت هتاف عالٍ بنبرته الكثير من الذعر تناهى لمسامعها التي بدأت تدرك الأصوات حولها وكأنها قادمة من بئر سحيق الأعماق.. أو ربما هي التي تسكن قاع ذاك الجُبّ فتصل إليها أصواتهم من عليائهم بها الكثير من الأصداء غير المحببة والتي تثير انزعاجها.. هي تريد الخلود لنوم عميق لا تستيقظ منه إلا على..

إلا على ماذا!؟..

من تبقى بدنياها تنتظر رؤياه!؟.. الكل رحل.. كلهم غابوا.. لم يبق إلا وحدتها تشاطرها الحزن، تتجرع الوجيعة، وتتناول الحسرة لقيمات مغموسة بالمرار لا تكاد تصلب عودا أو تقم أَوَدًا..

همهمت تقلد أمها مُعددة مآسيها، ولم تلق بالا لهؤلاء الذين تجمهروا حول فراشها.. كان البعض يعتقد أنها حاولت الإنتحار لكن أحدهم

هتف في ثقة:

- لا مش محاولة إنتحار..دي كانت حامل والظاهر فقدت الجنين.. ساعدوني نعمل اللازم..

تركت جسدها بين أيديهم وتحت تصرفهم وكل ما كان يكسو عقلها الذي تسبح بسمائه غيمات التيه هو أنشودة أمها التي كانت تعيدها على مسامعها في حسرة والتي أخذت هي تكررها بدورها في تتابع محموم:

لما جالولى ده غلام... انشد ضهرى واستجام..
وكلونى البيض مجشر... وعليه السمن عام..
ولما جالوا دي بنيّة... الحيطان مالت عليّا..
وكلونى البيض بجشره... وبدال السَّمن ميًّا..

*****

هتف المحامي الذي كان متعطفا معها بشكل كبير.. متعجبة هي لا تعلم لما من الأساس يتعاطف مع امرأة قاتلة إلا أنه أجاب كأنما سمع تساؤلها الخفي:

- إن هذه المرأة الماثلة أمامكم داخل قفص الإتهام من أجل قتلها ذاك الرجل الذي اعتدى على شرف أختها، وقتلها حتى لا تشِي به لهي امرأة من نوع خاص استطاعت الثأر لشرف توأمتها فهي كامرأة صعيدية تُقدر معنى العرض وكيف تزُود عنه..

لا تعلم كيف استطاع ذاك المحامي المُحنك جمع كل تلك المعلومات

عنها أو عن أختها وعسران.. هل هي من أمدته بهذه التفاصيل؟!.. متي حدث هذا؟!.. ربما في إحدى زياراته التي كانت تتوالى.. على ما تتذكر هي لم تحدثه أو تخبره بشيء.. أو ربما فعلت!!..

كان الأمر يُحيرها كليا.. لكن على أية حال.. لم يحد كثيرًا عن الحقيقة.. حقيقة أنها قتلته.. نعم قتلته.. ليس لأنها كما ادعى المحامي حامية حِمِى الفضيلة والشرف لكن لأنها أرادت الانتقام منه.. من ذاك الشعور الذي ذرعه داخل روحها في البداية.. ولنيله غايته منها دون مقابل، حتى ولو كان عاطفة صادقة، وأخيرا لجعلها تمكر بأختها بهذا الشكل، حتى رأتها تسلم الروح بقسوة أمامها دون أن يرفّ لها جفن..

أية إنسانة تحولت لها جراء ذاك العشق الملعون الذي سرى بروحها المعطوبة؟!.. تذكرت كيف زارت قبر أختها يومًا ما حينما اشتاقت رقادها جوارها.. التمعت عيونها بالدموع حينما اخذتها الذكرى.. أرعدت وأبرقت وفتحت السماء بوابات سدودها ذاك اليوم لينهال المطر بعد طول انتظار..

خرجت هي من العشة التي ما كانت تأويها في مثل هذا الجو الماطر.. أي إيواء ذاك بين أربع جدران متهالكة وسقف لا يمنع عنهن إيذاء بضع قطرات من ماء تتسلل عبر الشقوق والفراغات لتصبح السماء وكأنها فوق رؤوسهن بأمطارها شتاءً وقيظها صيفاً!؟..

خاضت نعلها الخفيفة المهترئة الأرض الموحلة حتى صارت هناك

حيث وارى الثرى- ذاك الحقير- جثمان أختها المحترق دون أن يعلم أحدهم أنها ترقد هنا وحيدة..

وقفت أمام مدفنها في ذاك الغيط المهجور وما أن تطلعت نحو موضع دفن أختها حتى توقف المطر بلا سابق إنذار كأنه لا يريد أن يصبح شاهدًا على مثل هذا اللقاء البغيض..

سقطت بل انهارت على ركبتيها التي غاصت بالطين اللزج ومدت كفها وغرستها بوحل القبر هاتفة في وجع:

- ليه كده يا بت أبوي!؟.. ليه تعملي فيا وفي روحك كده؟!..

انفجرت باكية دون مقدمات وكأنما استعاضت عن دموع السماء بدموع عينيها التي كانت نادرا ما تدمع..

شهقت في حسرة هاتفة من جديد:

- ليه روحتي وخدتي روحي وياكِ؟!.. چينا الدنيا سوا وإنكتب علينا شجاها سوا.. حتى لما عشجت جلوبنا.. عشجت نفس الچدع.. بس أنتِ غدرتي.. عشانه بعتيني.. ليه يا بت ابوي!؟.. ليه؟!..

شهقت من جديد، وهي ترفع كفيها من أوحال القبر الذي تمنت لو تنبشه اللحظة لتستخرج جثة أختها أو ما تبقى منها لتحتضنها لصدرها لعل ذلك يُخرس صرخات ذاك المآتم المقام سرادقه بروحها مقوضا دعائمها الهشة من الأساس.. لقد رحلت عنها تحترق وجعا أمام ناظريها وهي ما حركت ساكنا لإنقاذها، وكأنما كانت تظن أن رؤيتها ترحل بهذا الشكل الدامي سيطفئ نيران قلبها المستعرة

غضبا وغيرة وقهرا.. لكنها كانت واهمة.. فتلك النيران زادت توهجا لتصبح سعيرًا يحرقها دون أن تكون قادرة على مد العون لنفسها هي هذه المرة.. عاجزة تماما عن اتخاذ أية خطوة تجاه إخماده وكأن عيشها في جحيمها الداخلي ذاك أضحى تكفيرا عادلا عما اقترفته يداها.. يداها التي أخرجتهما من أوحال خطيئتها اللحظة لتنهض في هوادة راحلة بأقدام مثقلة بأحجار الذنب، لا تقوى على المسير في ذاك الدرب الطيني اللزج..

عاودت السماء بكائها لترفع وجهها بمواجهتها صارخة في وجيعة زلزلت ذاك الجبل الأصم الشاهد على نوح الموال منذ قديم الأزل..

*****

صوت مزلاج باب العنبر دوى صداه في تلك الردهة الباردة وهم يودعوها إياه من جديد.. أجلستها إحدى الممرضات على فراشها الذي غادرته منذ ساعات معتقدة أنه لن يمس جسدها ثانية.. للمرة الأولى تماما تشعر بالألفة داخل هذا العنبر.. يبهجها لون طلاء جدرانه الباهت وتسعدها شقوقه التي تسري بجوانبه وتشعر بالتوحد مع سقفه المخدوش والذي غادره لونه من أثر الرطوبة..

جلست على طرف الفراش وغادرتها الممرضة لتسمع صوت المزلاج وإغلاق العنبر..

مدت كفيها تتحسس فراشها في حميمية.. ذاك الفراش الذي وعلى الرغم من كونه ليس بالفراش الوثير إلا أنه أفضل مائة مرة من تلك

الخرق البالية التي كانت تتخذها كفراش بعِشتها، والتي كانت عظامها تئن وجعا بعد استيقاظها من نومٍ قلقٍ عليها..

تمددت تحتضن الوسادة، وصدىً الحكم الذي هتف به القاضي منذ ساعات يتردد على أسماعها مؤكدا عدم مسؤوليتها عن كل جرائمها؛ فقد كان التقرير الطبي يؤكد أنها مريضة بمرضٍ لم تدرك كنهه ولا عرفت ما يكون.. ولا أي جزء بجسدها هو الذي يؤلمها جراءه.. لكن المحامي الذي استبسل في الدفاع عنها أكد أنها مريضة وانصاعت المحكمة لتصدر حكمها بعودتها للمشفى من جديد.. عشر سنوات قد تقصر كحد أدنى لثلاث سنوات ستقضيها هنا بهذا المشفى.. لم يكن الأمر بهذا السوء على أي حال.. يوما ما ستخرج من جديد لتستعيد حياتها الذي سلبها عشق عسران..

احتضنت وسيادتها بقوة من جديد.. وكادت أن تغمض عينيها لتروح في سبات عميق ملقية كل ذكرياتها المشوشة خلف ظهرها.. إلا أن غناء تلك القمرية على حافة النافذة القريبة من سريرها جعلتها تتنبه متطلعة نحوها في فضول.

راقبتها لبرهة وهديلها كأنما يدعوها إلي الاقتراب.. لبت الدعوة تدنو من موضع وقوفها تمد الطرف نحوها في محبة.. عاد الهديل من جديد لتبتسم شامة في سعادة وهي تضع كفها على بطنها الذي انتفخ قليلا مؤكدا أن ولدها قد بدأ ينمو بأحشائها.. ذاك الجنين الذي كادت أن تفقده.. والذي فعلت لأجله كل هذا..

أغمضت عينيها مستمتعة بهديل اليمامة الذهبية التي حطت جوار صديقتها.. لتتذكر كيف أصبحت ما هي عليه.. والذي لا تعرف كيف وصلت إليه من الأساس..

تبسمت فقد خدمتها الصدفة وبعض الحظ في تحقيق ما كانت تصبو إليه ولم تستطع تحقيقه بالحب والتفاني فحصلت عليه بالحيلة وألاعيب الساحرات.. يوم أن جاءها مهرولا يطلب منها الموافقة على الزواج بها.. كانت تدرك تماما أنه ليس عسران الذي تعرفه.. كان شخصا آخر.. وكأنه تبدل بآخر أكثر رقة ووداعة وأطيب قلبا وأصفى سريرة..

هتف بها ساعتها:

- أني كنت غلطان.. أنتِ تستحجي أكتر بكتير من اللي جدمتهولك.. أني بحبك ورايدك بحلال ربنا.. فينها شهادة الميلاد والبطاجة الشخصية اللي طلعتهملك مخصوص عشان چوازنا.. هاتيهم ياللاه نروحوا للمأذون دلوجت..

لم تصدق أذنها حين قال ما قال.. هل يعرض عليها الزواج حقا؟!.. وهل كان ينوي الزواج من أختها بالفعل؟!.. لكن أين يمكن أن تكون تلك الأوراق يا ترى؟!..

هتفت في دلال تماطله حتى يتسنى لها البحث عن الأوراق التي جاءتها نجدة من السماء:

- طب بس إديني ساعة زمن، ونتجابل ع الچسر اللي بره البلد..

تطلع إليها في شوق متلهفا:

- طب هِمي.. هستناكِ هناك من دلوجت.. متعوجيش عليا..

ابتسمت في سعادة هاتفة:

- لاه.. حالا..

رحل لتغلق خلفه الباب سريعا تتطلع حولها بكل نواحي العشة في تيه لا تعرف أين يمكن أن تكون قد وضعت أختها الأوراق.. وقع ناظرها على كيس بلاستيكي مغروز بين عروش السقيفة بالأعلى.. كادت أن تطلق الزغاريد منبئة عن سعادتها.. أحضرت صفيحة فارغة كانت تسخن بها المياه عند الحاجة ووقفت عليها لتطال ذاك الكيس بشق الأنفس بعد أن جاهدت في مثابرة للوصول إليه.. جذبته في قوة لتنتزعه من موضعه الخفي لتهتز الصفيحة تحت أقدامها ليختل توازنها وتسقط عنها.. كان سقوطا مدويا أحدث بعض الجلبة ما جعل أمها تهتف في فزع:

- خبر إيه يا بت؟!.. إيه اللي چرى؟!..

هتفت وهي تنهض متوجهة قليلا لكن فرحتها غطت على كل هذا هاتفة بأمها:

- مفيش ياما ده رچلي خبطت فالصفيحة غصب..

فتحت الكيس تفض محتوياته متطلعة نحوها لا تدرك أنها ما كانت تبحث عنه من أوراق.. فهي كانت لا تجيد القراءة ولا الكتابة وكذا أختها لكنها تعرف كيف تميز اسميهما.. فقد تعلمت كيف تكتبهما في

المرات القليلة التي ارتادت بها كُتاب النجع..

رأت اسم شامة ينير الأوراق فأصبحت تامة التأكد أنها الوثائق التي كان يتحدث عنها..

يا لفرحتها!.. اندفعت تضع شالها الأسود لتلحق به على الجسر حيث ينتظرها هو بصحبة السعادة والهناء الذي انتظرته طويلا وعلى ما يبدو أنه يدق باب قلبها هذه اللحظة..

لقد تزوجت عسران.. تزوجته باسم أختها تلك التي كان يهواها وعلى استعداد للزواج بها.. كان راغبا فيها وهي التي لم تمنح ولم تحمل ثمرة خطيئته والذي سيقذف لهذه الدنيا ليعير بأنه ابن حرام.. لا أب له يعترف بأبوته.. سيعير كما عيرت عمرها كله بسبب أب غير مسؤول تركها وأختها لأن ذنبهما الأوحد أنهن خُلقن فتيات لا ذكور.. وهي لن تدع ولدها يشرب من نفس كأس المهانة والمذلة..

مدت كفها ترفع طرف جلبابها لتبصر تلك الشامة التي كانت علامتها المميزة هي وأختها.. كانت أختها تملك واحدة بنفس الموضع عند باطن الساق اليمنى على شكل قمر مستدير بينما تملك هي نفس الشامة لكن على شكل يمامة تفرد جناحيها لتحلق في حرية تحتل سموات البراح البكر..

تطلعت لشامتها التي تؤكد أنها يمامة ووضعت كفها على سيالة جلبابها لتطمئن أن أوراق أختها الراحلة التي انتحلت شخصيتها موجودة حيث تكون دومًا لا تتركها أبدا.. فهي الدليل الوحيد أنها شامة وأن

هذا الطفل القادم هو ولده.. وأن كل ما كان لعسران سيؤول له يوما ما وخاصة بعد ما عرفت أن العمدة قد مات كمدا وقهرا على وحيده وأن جليلة قد أقعدها المرض حسرة فأصبحت بلا حول ولا قوة..

عادت القمرية للهديل من جديد لتتنبه لها تحيد ناظرها عن شامتها الطليقة تبصر اليمامتين وقد حلقا بعيدا عنها لترتسم على شفاهها شبه ابتسامة وهي تودعهما بناظريها كأنما تودع نفسها القديمة هامسة تشدو كما هي عادتها التي اكتسبتها حديثا موروث عن أمها الراحلة:

يمامة بيضا.. ومنين أجيبها؟!..

طارت يا نينة.. عند صاحبها..

تعلقت عيناها باليمامة المُحلقة وكأنما روحها تُحلق في رفقتها لتمسك بقضبان النافذة الحديدية كأنما ترغب في الاندفاع خلفها.. لكنها عوضًا عن ذلك لوَّحت لها من بعيد.. وعادت تتمدد على فراشها تُطلق العنان لمُخيلتها المُشوشة بعض الشئ لتتذكر أن ما من شئ يمكن أن يكون أروع من العشق..

وربتت على بطنها من جديد في محبة..

*****

تمت بحمد الله

رضوى جاويش

٢٠٢١/٢/٢٨



للترجمة والتدريب والنشر والتوزيع

زوروا موقعنا الإلكتروني

www.ibda3eg.com

info@ibda3eg.com

publishing@ibda3eg.com

dreidibrahim@gmail.com